رواء

مجلة فكرية دورية

- حصاد الإلحاد
- جنايات القطاع غير الربحي الغربي (مؤسسة بيل غيتس أنموذجاً)
- الوقف البيئي الإسلامي، ودوره في تحقيق التنمية المستدامة
- مخاطر شبكات التواصل الاجتماعي على الأسرة المسلمة

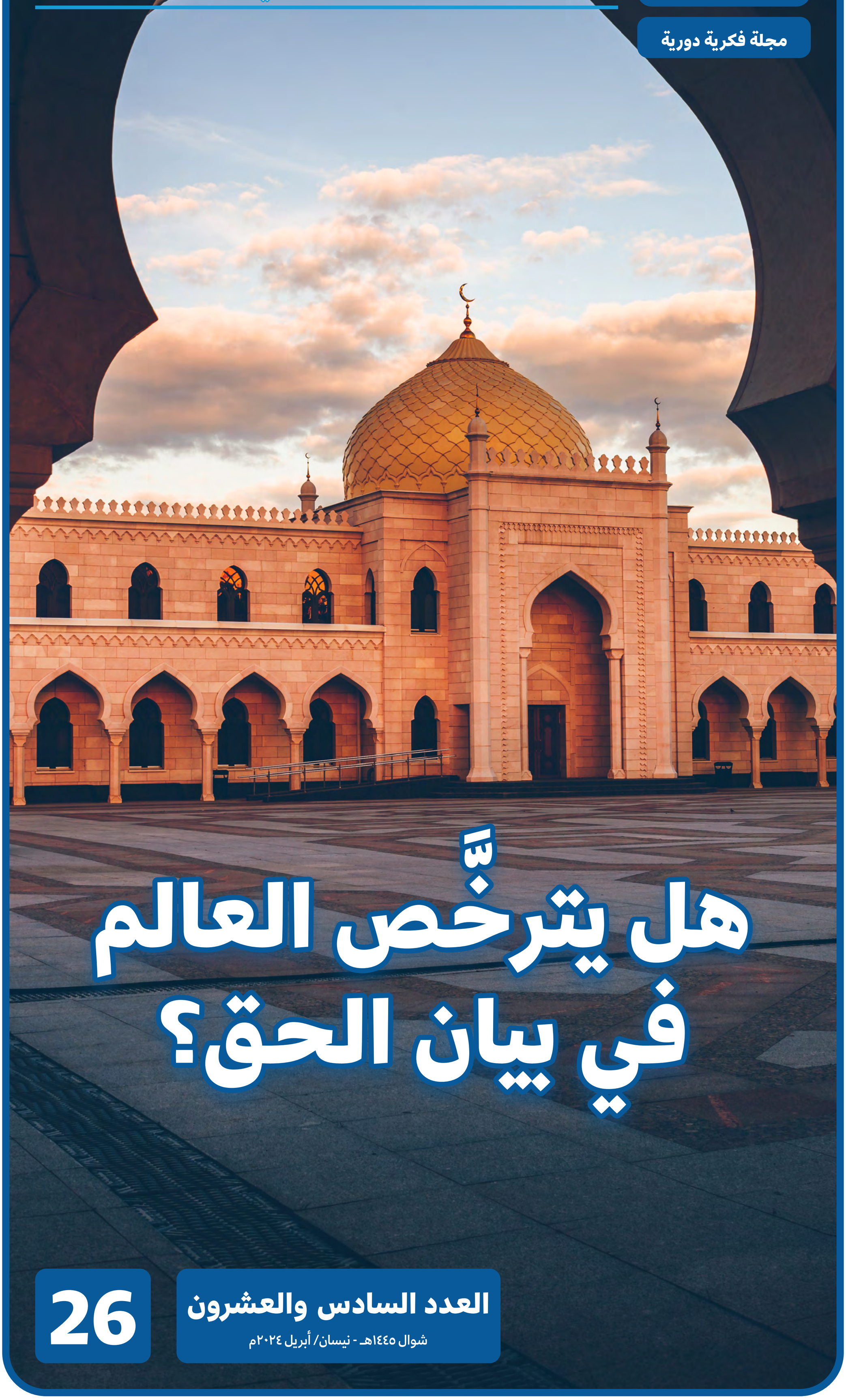

هل يترخَّص العالم في بيان الحق؟

العدد السادس والعشرون

شوال ١٤٤٥هـ - نيسان/ أبريل ٢٠٢٤م

26

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

تأصيل	حضارة وفكر	دعوة	نظرات نقدية	قضايا معاصرة	تزكية	قراءات
مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأسسه بصورة بنائية	مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية	مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية	لتصحيح المفاهيم والتصورات	مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، وتطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة	في التربية والتزكية والأخلاق	قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

هيئة الشام الإسلامية

رَواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشنات
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

١
هل يترخَّص العالم في بيان الحق؟

٢
حصاد الإلحاد

٣
جنايات القطاع غير الربحي الغربي (مؤسسة بيل غيتس أنموذجاً)

٤
الصراع بين تبكير الزواج وتأجيله

٥
الوقف البيئي الإسلامي، ودوره في تحقيق التنمية المستدامة

٦
السيرة النبوية منطلق لتربية الفرد وإصلاح المجتمع

٧
مخاطر شبكات التواصل الاجتماعي على الأسرة المسلمة

٨
توجيه الشريعة الإسلامية لدافع حب الاستطلاع

٩
النظام الغذائي في الإسلام وآثاره الصحّية والسلوكية

١٠
قراءة في كتاب فقه الاستدراك لمحمد بن محمد الأسطل

١٢
وآمَنَهُم مِن خَوف

كلمة التحرير

هل يترخَّص العالم في بيان الحق؟

مكانة العلماء:

لا يخفى ما جعله الله تعالى لأهل العلم مِن مكانةٍ ومنزلةٍ في الدين، فقد أثنى الله عليهم، ونوه بشأنهم فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وبيّن أنّهم أهلُ خشية الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وأخبر المصطفى ﷺ أنّ (فضلَ العالِـم على العابد كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب، وإنَ العلماءَ ورثةُ الأنبياء)[١].

وقد وصف الله الأنبياءَ بأنّهم ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، فإذا كان العلماءُ هم أهل خشية الله، وهم ورثة الأنبياء فينبغي كذلك أن يرثوا الأنبياء في تبليغ رسالات الله وعدم التقصير في بيانِها للناس.

أخذ الميثاق:

ولأنّ العلماءَ هم الموقّعون عن الله في بيان شرعه وأحكام دينه فقد أخذ الله عليهم العهدَ المؤكّد أنْ يبيّنوه للناس ولا يكتموه، وأن لا يقولوا عليه إلا الحقّ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وتوعّد الله سبحانه الذين يكتمون العلم ويحجبونه عن الناس الذين يحتاجون إليه فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، كما توعّد الذين يمنعهم مِن تبليغ العلم ابتغاءُ عرَض الدنيا بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

العلماء هم الموقّعون عن الله في بيان شرعه وأحكام دينه؛ لذلك فقد أخذ الله عليهم العهدَ المؤكّد أنْ يبيّنوه للناس ولا يكتموه، وأن لا يقولوا عليه إلا الحقّ، لأنّ قيامَ أهلِ العلم بواجبِهم في تبليغ دينِ الله وحراستِه شرطٌ لازمٌ ومقدّمةٌ ضروريَة لقيام الدِّين وظهور معالمه ودوام بقائه

وما ذلك إلا لأنّ قيامَ أهلِ العلم بواجبِهم في تبليغ دينِ الله وحراستِه شرطٌ لازمٌ ومقدّمةٌ ضرورية لقيام الدِّين وظَهور معالمه ودوام بقائه؛ فحفظُ الدِّين -الذي هو مِن الضروريات الخمس التي اتفقت عليها الشرائع- لا يكون إلا بثلاث ركائز: بيانُ أحكامه وتوضيحُ شرائعه وتنزيلُها على وقائع الناس، ثم التزامُها والعملُ بها وتطبيقُها، إضافةً إلى حمايتِها والذبِّ عنها بالحجّة والبرهان، وبالسيف والسِّنان. وللعلماءِ مِن هذه الركائز النَّصيبُ الأوفى، والقِدْحُ الـمُعَلَّى، فهم المنفردون دون غيرهم ببيان الأحكام وتبليغها، وبالذّبِّ عن الشريعة وحمايتها بالحجة والبيان، «وهو جهادُ خواصِّ الأمّة وورثة الرسل، والقائمون به أفرادٌ في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلِّين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدْرًا»[١].

ثمّ هم شركاءُ الناسِ فيما سوى ذلك مِن الركائز في تطبيق الأحكام، وجهاد المعاندين بالسيف، بل الناسُ تبعٌ للعلماء في

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٣/٥-٦).

جهادهم وتطبيق دينِهم، «فقِوامُ الدِّين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. ودينُ الإسلام: أن يكون السيفُ تابعًا للكتاب. فإذا ظهر العلمُ بالكتاب والسنّةَ وكان السيفُ تابعًا لذلك كان أمرُ الإسلام قائمًا...، وأمّا إذا كان العلمُ بالكتاب فيه تقصيرٌ، وكان السيفُ تارةً يوافق الكتاب وتارةً يخالفه؛ كان دينُ مَن هو كذلك بحسَب ذلك»[١].

«كما قال مَن قال مِن السَّلف: صنفان إذا صلحوا صلح الناس: الأمراء والعلماء. وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] أقوالاً تجمع العلماءَ والأمراءَ، ولهذا نص الإمامُ أحمد وغيره على دخول الصِّنفين في هذه الآية؛ إذ كلٌّ منهما تجب طاعتُه فيما يقوم به مِن طاعة الله»[٢].

واجب العلماء بيان الحق:

ومِن هنا ألزمت الشريعةُ المكلّفين أنْ يَصدُروا عن أقوال أهل العلم فيما لا يعلمونه مِن أحكامها كما قال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ولا يخفى أنّ الخطاب بهذه الآية كما يشمل العامّةَ فهو شاملٌ أيضًا للولاة الذين ليسوا مِن أهل العلم، فهم داخلون في عموم الآية؛ لشمولِها كلَّ مَن لا علمَ عنده بأحكام الله تعالى، «والتحقيقُ أنّ الأمراءَ إنما يُطاعون إذا أُمروا بمقتضى العلم؛ فطاعتُهم تبعٌ لطاعةِ العلماء؛ فإنّ الطاعةَ إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلمُ، فكما أنّ طاعةَ العلماءِ تبعٌ لطاعة الرسولِ فطاعةُ الأمراءِ تبعٌ لطاعة العلماء»[٣]. فتبيّن بهذا أنّ مدارَ بيانِ الدِّين وتطبيقِه وحفظِه

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٩٣/٢٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥٨/١٨).
(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم (٨/١).

وحراستِه على العلماء، وقيامِهم بواجبهم، وعدم تقصيرهم في مسؤوليتهم.

ومِن ثمّ فسكوتُ العلماء عن بيان الحق، وإقرارهم للباطل عند خوف الأذى لا ينبغي أن يُنظَرَ فيه إلى ما يترتب مِن المفاسد على أشخاصهم فقط، بل ينبغي أن يُراعى ما يتعدّى منه إلى دين الناس ومعالم الشريعة، ولذلك قال أبو ذر رضي الله عنه: «لو وضعتم الصَّمْصامةَ[١] على هذه -وأشار إلى قفاه- ثم ظننتُ أني أُنفِذُ كلمةً سمعتُها مِن النبي ﷺ قبل أن تُجيزوا عليَّ لأنفذتُها»[٢]. وهو رضي الله عنه «يعني ما سمع مِن رسولِ الله ﷺ مِن الفرائض والسُّنن، وما ينتفع الناس به في دينهم مما أخذ اللهُ به الميثاقَ على العلماء ليُبيِّنُنّه للناس ولا يكتمونه»[٣].

ولا شكّ أنّ ذلك مِن الجهاد في سبيل الله كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضلُ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عند سلطانٍ جائر)[٤]، فتحمّلُ الأذى الذي قد يصل إلى القتلِ في سبيل تبليغ أحكام الله وإقامة دينِه مقامٌ عظيمٌ لا يقومه إلا أهلُ العزائم، ولهذا استحقّوا أنْ يكونوا في أعلى مراتبِ الشهداء؛ فـ(سيدُ الشهداءِ حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه فقتله)[٥].

ولكن، أليس للعالم أن يترخّص إذا خاف على نفسه؟ هذا يستدعي أولاً مراجعة سريعة لمفهومي الرخصة والعزيمة والأحكام المتعلقة بهما.

(١) السيف القاطع. النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٢/٣).

(٢) علّقه البخاري في صحيحه (٢٥/١) مجزومًا به، ووصله الدارمي في مسنده (٥٦٢)، وأبو نُعيم في حلية الأولياء (١٦٠/١)، وفي إسنادهما لين.

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطّال (١٥٢/١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، والنسائي (٤٢٠٩)، وابن ماجه (٤٠١١)، وصححه جمعٌ بشواهده.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٨٨٤)، وصحّح إسناده، وتعقّبه الذهبي بجهالة أحد رواته، لكن رواه الخطيب البغدادي بإسناد آخر حسن في تاريخ بغداد (٤٠٦/٧).

بين الرخصة والعزيمة:

يتوهّم كثيرون حينما يقال في قضية ما «إنّ فيها رخصةً»: أنّ المرءَ مخيّرٌ فيها بين أنْ يفعل أو لا يفعل على وجه السَّواء، أو أنّ الأخذَ بالرُّخصةِ أفضلُ دائمًا؛ لأنّ الله تعالى يحبُّ أنْ تؤتى رُخَصُه كما يحبّ أنْ تؤتى عزائمُه، بينما يظنُّ آخرون أنّ الأخذَ بالعزيمة هو الأفضل مطلقًا؛ لأنّها الأصل، ولا تعدو الرخصةُ أن تكون تخفيفًا عن المكلَّف يأخذ به إذا شاء.

ولعلّ فصلَ الخطاب في هذه القضية ينبني على النظر في مسألتين:

الأولى: هل نحن متعبَّدون بالرخصة أو بالعزيمة أو بهما، وبعبارة أخرى: ما حكم الأخذ بالرخصة؟

والثانية: هل يختلف الحكمُ الأصلي للأخذ بالرخصة -فيتعيّن أحيانًا، ويُمنع أخرى، ويتأكّد في حالٍ، ويحسُنُ في وقتٍ، ويقبُح في آخر- باعتبار الشخص المترخّص، كما لو تعلّق الأمرُ بشخص مقتدًى به منظورٍ إليه؟

وقبل التعرَّض للمسألتين السابقتين نشير إلى تعريف الرُّخصة والعزيمة بما يحصل معه إدراك المقصود منهما، والتفريق بينهما، فالعزيمةُ «حكمٌ ثابتٌ بدليلٍ شرعي خالٍ عن معارضٍ راجحٍ»، والرُّخصةُ: «ما ثبت على خلافِ دليلٍ شرعيٍّ لمعارضٍ راجحٍ»[1].

وبالتأمل في التعريفين السابقين يظهرُ أنّ العزيمةَ لا تعني الوجوبَ دائمًا، كما أنّ الرخصةَ -عند وجود سببِها- لا تعني الإباحةَ دائمًا، ومِن هنا قرّر أهلُ العلم -وهو متعلِّقٌ ببيان المسألة الأولى- أنّ العزيمةَ تتناول الأحكامَ التكليفية الخمسة؛ لأنّها أحكامٌ ثبتت بأدلة شرعية بلا معارض، بينما الرخصة لا

(١) الكوكب المنير شرح مختصر التحرير (٤٧٦/١، ٤٧٨).

تكون محرّمةً ولا مكروهةً، بل قد تكون مباحةً كالجمع بين الصلاتين في السفر أو المطر أو المرض عند مَن يقول به، وقولِ كلمة الكفر عند الإكراه. وقد تكون مستحبّةً كقَصر الصلاة في السفر. وقد تكون واجبةً كأكل المضطر للميتة.

وبهذا يتبين أنّه لا يُطلق القولُ بأننا مكلّفون دائمًا بالعزيمة فقط أو بالرُّخصة فقط، فنحن مِن حيث الأصل وعند عدم وجود المعارض الراجح مكلَّفون ومتعبَّدون بالعزيمة فقط، ولا يُشرع لنا الأخذُ بالرخصة. وأمّا عند وجود سبب الترخُّص -وهو المعارِض الراجح- فقد نكون متعبَّدين بالرخصة فقط وعلى سبيلِ الإلزام، ولا يجوز لنا الأخذ بالعزيمة كما في أكل الميتة للمضطر، وكما في قصر الصلاة عند الموجِبين له، وقد نكون متعبّدين بالرخصة والعزيمة على سبيل التخيير مع تفضيل الرخصة واستحباب الأخذ بها مِن غير منعٍ مِن البقاء على العزيمة، كما في قصر الصلاة في السفر عند جمهور أهل العلم، وقد نكون مخيَّرين بينهما مع كون الأخذ بالعزيمة أعلى رتبةً وأعظم أجرًا كما في قول كلمة الكفر تحت الإكراه؛ فإنّ مَن صبر على الأذى والإكراه كسيدنا بلال رضي الله عنه أعلى رتبةً وأفضلُ حالاً ممّن أجاب تحت الإكراه كسيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

قال السرخسي: «والرخصة في إجراء كلمة الشرك ثابتة في حق الـمُلجَأ بشرط طمأنينة القلب بالإيمان إلا أنّ هنا إن امتنع كان مثابًا على ذلك؛ لأنّ الحرمة باقية، فهو في الامتناع متمسك بالعزيمة، والمتمسك بالعزيمة أفضل مِن المترخّص بالرخصة»[1]، وقال في موضع آخر معلِّلاً ذلك: «لأنّ في تمسكه بالعزيمة إعزازَ الدين، وغيظَ المشركين، فيكون أفضل»[2].

(١) المبسوط (٥٠/٢٤).

(٢) المرجع السابق (١٥١/٢٤).

وقد يختلف أهلُ العلم في الأفضل منهما كما في فطر رمضان للمسافر.

وفيما يتعلّق بالمسألة الثانية فلا يخفى أنّ الشريعةَ جاءت باعتبار المآلات ونتائجِ التصرّفات، وأنّ الحكمَ الشرعي سواء كان رخصةً أو عزيمةً قد يتغير بالنظر إلى ما يؤدّي إليه مِن مصالح ومفاسد.

فالعالم الشهير المقتدَى به ليس ترخّصُه كترخّص غيره؛ لأنّ كثيرًا مِن الناس يتخذه قدوةً يتابعه على فعله وقوله، «وهو في الاعتبار قائمٌ مَقامَ الفُتيا بالقول؛ إذ قد عُلِمَ أنه مُتَّبَعٌ ومنظورٌ إليه، وهو مع ذلك يُظْهِر بفعلِه ما ينهى عنه الشارعُ، فكأنه مُفْتٍ به؛ على ما تقرّر في الأُصول»[١]، فلا بدّ أن يكون ذلك حاضرًا في الذِّهن عند النظر في حكم الأخذ بالرخصة.

وفي صحيح مسلم عن أبي حازم الأشجعي قال: كنتُ خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمدُّ يدَه حتى تبلغ إبطَه، فقلتُ له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فَرُّوخ[٢] أنتم هاهنا؟! لو علمتُ أنكم هاهنا ما توضأتُ هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: (تبلغ الحِليةُ مِن المؤمن حيث يبلغ الوضوءُ)[٣].

قال القاضي عياض: «وقولُه ما قاله له لأنّه لا ينبغي لمن يُقتدَى به إذا ترخّص في أمرٍ لضرورةٍ، أو تشدّد فيه لوسوسةٍ، أو لاعتقاده في ذلك مذهبًا شَذَّ به عن الناس أن يفعلَه بحضرة العامةِ الجهلةِ؛ لئلا يترخّصوا بترخّصِه لغير ضرورة، أو يعتقدوا أنّ ما يشدّد فيه هو الفرض واللازم»[٤].

(١) الاعتصام، للشاطبي (٣/٤٨١).
(٢) أراد بهم الموالي.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠).
(٤) إكمال المعلم (٢/٥٣-٥٤).

وربّما ركن بعضُ المترخّصين في مقام العزيمة إلى قول أبي هريرة رضي الله عنه: «حفظتُ مِن رسولِ الله ﷺ وعاءين: فأمّا أحدُهما فبثثتُه، وأمّا الآخر فلو بثثتُه قُطع هذا البُلعوم»[1]؛ فيفهمون منه أنّ أبا هريرة رضي الله عنه كتم بعضَ العلم، ولم يبلّغ بعضَ الشريعة خوفًا على نفسِه، ومِن ثمّ فإنه يجوز للعالم أن يترك البيان متى خشي الأذى أو الفتنة، وهذا فهمٌ غيرُ مستقيم؛ فقد «حمل العلماءُ الوعاءَ الذي لم يبثَّه على الأحاديث التي فيها تبيينُ أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنِهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضِه ولا يصرّح به خوفًا على نفسِه منهم»[2]، «وكذلك ينبغي لكلِّ مَن أمر بمعروفٍ إذا خاف على نفسِه في التصريح أن يُعَرِّض، ولو كانت الأحاديثُ التي لم يحدِّث بها مِن الحلال والحرام ما وَسِعَهُ تركُها»[3]، فـ «هذا الذي كتمه ليس مِن أمر الشريعة؛ فإنه لا يجوز كتمانُها، وقد كان أبو هريرة يقول: لولا آيةٌ في كتاب الله ما حدثتُكم، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٥٩]، فكيف يُظنُّ به أنْ يكتم شيئًا مِن الشريعة بعد هذه الآية، وبعد أمرِ رسول الله ﷺ أن يبلّغ عنه»[4].

ترخُّص العالم الشهير المقتدَى به ليس كترخّص غيره؛ لأنّ كثيرًا مِن الناس يتخذه قدوةً يتابعه على فعلِه وقولِه، وهو في الاعتبار قائمٌ مَقامَ الفُتيا بالقول

(١) أخرجه البخاري (١٢٠).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (٢١٦/١).
(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٩٥/١).
(٤) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (٥٣٤/٣).

متى يسوغ الترخُّص؟

نعم، يسوغ للعالم إذا كان يُصيبه مِن الأذى ما لا يُطيق أن يترخّص بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كون العزيمة هي الأفضل في حقّه، «ففي هذا مِن الفقه أنه يجوز للعالم أنْ يأخذ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشدّة، والعزيمة مع الناس، ويحتسب ما يصيبه في ذلك على الله تعالى، ومباحٌ له أن يأخذ بالرخصة في ذلك، ويسكت إذا لم يطق على حمل الأذى في الله»[١]، ولكن ينبغي أن يُقَيَّدَ ذلك بأنْ لا يترتّب على ذلك اندثارُ معالم الدين، وتغيير أحكام الشريعة؛ لأنّ هذه المفسدة أعظم مِن المفسدة الواقعة على شخص معيّن حتى لو وصلت إلى قتلِه وإزهاق روحِه ظلمًا، وقد قرر العلماء القاعدة الشرعية (يُتحمّل الضررُ الخاصّ لدفع الضرر العام)[٢]، ففي صبر العالِم وثباتِه على الحق مصلحة الدّين بظهوره وحفظِه وإعزازه، ومصلحةُ العالم باصطفاء الله له وتبليغه منازلَ الشهداء، كما حصل مع غلام الأخدود الذي قدّم نفسَه قربانًا لترسيخ توحيد الله في القلوب رسوخًا يحمل عمومَ الناس والصغار والكبار والرجال والنساء على التمسك بالدين والصبر على الإحراق، وكما وقع للإمام أحمد الذي حفظ الله بثباته وصبره عقيدةَ المسلمين ومنهجَ أهل السنة في القرآن وكلام الله تعالى حتى قال إسحاق بن راهويه: «لولا أحمدُ بن حنبل، وبذلُ نفسِه لِـما بذلها له لذهب الإسلام»[٣]، وقال علي بن المديني: «إنَّ الله أعزّ هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث، أبو بكر الصديق يوم الرِّدّة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة»[٤].

(١) قاله ابن بطال في شرح صحيح البخاري (١٥٢/١) تعليقًا على قول أبي ذر رضي الله عنه: «لو وضعتم الصمصامة على هذه».
(٢) شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا (ص١٩٧).
(٣) حلية الأولياء (١٧١/٩).
(٤) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٨٤/٥).

ومما يدلُّ على أنّ الإمامَ أحمد لم يكن يرى له رخصةً في الإجابة في المحنة: أنّ بعضهم حاول أنْ يُقنعَ الإمامَ أحمد بأنْ يجيبَ في المحنة تقيةً، فقال لهم: «كيف تصنعون بحديث خبّاب: (إنّ مَن كان قَبلَكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار، لا يصدُّه ذلك عن دينه)[١]»؛ فيئسوا منه[٢]. وقيل للإمام أحمد: «وما عليك لو قلتَ؟ فقال: لو قلتُ لكفرتُ»[٣]. ولم يَعذر الإمام أحمد الذين أجابوا في الفتنة، وهجرهم وترك الرواية عنهم مع أنّ بعضهم من كبار الأئمة كعلي بن المديني[٤]، ويحيى بن معين[٥].

فالأصلُ في العلماء هو ترجيح جانب البيان، وحماية جناب الشريعة، وليس الترخّص وترك الإنكار، والإعراض عن بيان أحكام الله تعالى؛ إيثارًا للسلامة، وخوفًا من العاقبة، وقد جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (لا يحقرْ أحدُكم نفسَه) قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدُنا نفسه؟ قال: (يرى أمرًا لله عليه فيه مقالٌ ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشيةُ الناس، فيقول: فإيايَ كنتَ أحقَّ أنْ تخشى)[٦]. قال الإمام أحمد رحمه الله: «وهذا فيمن يتركه خشيةَ ملامة الناس، وهو قادرٌ على القيامِ به»[٧].

(١) أخرج حديث خبّاب رضي الله عنه البخاري بلفظ مقارب (٣٨٥٢).
(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٢٣٩/١١).
(٣) المرجع السابق (٢٥٩/١١).
(٤) المرجع السابق (١٨٢/١١).
(٥) في تاريخ بغداد (٢٦٨/٦) عن أبي زرعة قال: «كان أحمد بن حنبل لا يرى الكتابةَ عن... ولا يحيى بن معين، ولا أحد ممن امتحن فأجاب». والذي يظهر أنّ الإمام أحمد كان يعذر مَن لم يجب حتى ضُرب، ولا يعذر من أجاب قبل أن يعذّب كما ذكر حنبل في كتاب المحنة (ص٣٥-٣٧). وذهب بعضُ علماء عصره إلى تحقق الإكراه بخوف الضرب والسَّجن، وإن لم يقع فعلاً».
(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٨)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: «هذا إسناد صحيح.
(٧) شعب الإيمان، للبيهقي (٦٢/١٠).

الأصلُ في العلماء هو ترجيح جانب البيان وحماية جناب الشريعة، وليس الترخّص وترك الإنكار والإعراض عن بيان أحكام الله تعالى؛ إيثارًا للسلامة وخوفًا من العاقبة

الفتنة في البلاغ أو السكوت؟!

وربّما تعلّل بعضُهم في ترك واجب التبليغ، والتقصير في بيان الدّين والذبّ عن الملّة بخوف الفتنة، فيقال ها هنا: هل الفتنة في كلام العلماء أو في سكوتهم؟! ولعلّ هؤلاء الذين يزعمون الفرار مِن الفتنة بسكوتهم قد وقعوا فيما هو أعظمُ ممّا فرّوا منه، وصدق عليهم قولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]؛ لأنّها نزلت في قوم تخلّفوا عن الجهاد زعمًا منهم أنّهم يخافون فتنة النساء إذا رأوا بنات الروم، فتركوا ما فيه مصلحة الدين والمسلمين بادعاء دفع الفتنة والمفسدة الخاصة، فجعلهم الله ساقطين في عين الفتنة. والجهادُ باللسان والحجة أحدُ الجهادَين وأعظمُهما فائدةً، فيدخل في معنى الآية.

فإذا سكت مَن يعلم لأنّه يخشى الفتنة، وسكت من لا يعلم لجهله، فكيف يعرف الناسُ الحق؟!

وإذا كان هذا الكلام يُقال عن سكوت العالم في موضع يجب فيه البيان، فكيف بنطقه بالباطل موافقةً للظالمين، حتى يكون سببًا في إضلال الناس؟

ومن هنا كان علماء الأمة من الصحابة ومَن بعدهم يراعون مقامَ الاقتداء بهم، ويتحرّزون أن تُحمل تصرُّفاتُهم على غير مرادهم، وأن تؤدّيَ إلى تغيير أحكام الشريعة عند مَن لا فقه عنده، ولو في الأمور اليسيرة.

ومِن الأمثلة على ذلك ما ورد عن عمر بن الخطاب ﵁ أنّه رأى على طلحةَ بن عبيد الله ثوبًا مصبوغًا قد يلتبس بالمنهيِّ عنه عندَ مَن لا يعلم؛ فأنكر عليه، وقال: «ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة؟ فقال طلحة: يا أمير المؤمنين، إنما هو مَدَرٌ، فقال عمرُ: إنكم أيها الرَّهطُ أئمّةٌ يقتدي بكم الناسُ، فلو أنّ رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوبَ لقال: إنّ طلحةَ بنَ عبيد الله كان يلبَس الثيابَ المصبّغة في الإحرام»[١].

قال ابن المنذر: «إنّما نهى عن المصبّغة في الإحرام تأديبًا، ولئلا يلبَسه مَن يُقتدى به فيغتر به الجاهلُ، ولا يميّز بينه وبين الثوب المزعفر، فيكون ذريعةً للجهال إلى لبس ما نُهي عنه المحرِم مِن الورس والزعفران»[٢].

وعن الزهري: «أنّ عثمان بن عفان ﵁ أتمّ الصلاة بمنى مِن أجل الأعراب؛ لأنّهم كثروا عامئذٍ، فصلى بالناس أربعًا؛ ليُعلمَهم أنّ الصلاةَ أربعٌ»[٣].

وحينما رأى ابن عباس ﵄ أخاه صائمًا بعرفة قال له: «إنكم أئمة يُقتدى بكم، قد رأيتُ رسولَ الله ﷺ دعا بحِلابٍ في هذا اليوم، فشرب»[٤].

وقد رأى الفضيل بن عياض قومًا من أصحاب الحديث يمزحون ويضحكون، فناداهم: «مهلاً يا ورثة الأنبياء مهلاً -ثلاثًا- إنكم أئمةٌ يُقتدى بكم!»[٥].

(١) موطأ مالك برواية يحيى الليثي (٣٢٦/١)، وفي مطالع الأنوار لابن قرقول (٢٣/٤): «المدرُ: الطينُ اليابس، ويعني به هاهنا الأحمر منه؛ وهو المَغْرَة».
(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢١٧/٤).
(٣) أخرجه أبو داوود (١٩٦٤).
(٤) أخرجه أحمد (٣٢٣٩).
(٥) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠٠/٨).

وليس المطلوب في بيان الحق هو تهييج الناس، والتشغيب على النظام العام، والإغراء بالفوضى، بل بيان ما يحصل به قوام الدين، ومعرفة أحكامه مع توخّي الحكمة في الأسلوب، وسلوك طريق التعريض بالأشخاص على المبدأ النبوي: (ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا أو يقولون كذا).

مواقف مشهودة:

وقد كان لأهل العلم منذ زمن الصحابة الكرام، ثم التابعين ومَن بعدهم إلى عصرنا هذا المواقفُ المشهودة، والمقاماتُ المحمودة، في الصدع بالحق، والجهر بالسنة، لا يخافون لومة لائم؛ عملاً بما ثبت في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمرَ أهله، وأن نقوم أو نقول بالحقّ حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم)[1]. ومواقف السلف في ذلك شهيرة، وقصصهم كثيرة، فلا يخفى موقف أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مع الحجاج، وموقف سعيد بن جبير معه، وكان يزيد بن المهلّب بن أبي صُفرة ذا تِيهٍ وكِبرٍ وقد رآه التابعي الجليل مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير يسحبُ حُلَّته فقال له: «إنّ هذه مِشيةٌ يبغضها الله، قال: أو ما تعرفني؟! قال: بلى، أوّلُك نطفةٌ مَذِرة، وآخرُك جيفةٌ قذِرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرة»[2].

أين علماؤنا اليوم عن المواقف الجريئة، كالحسن البصري في مواجهة الحجاج، والإمام النووي في مواجهة الظاهر بيبرس في تمويل بيت المال من أموال التجار، والأوزاعي في مواجهة السفاح عندما أراد أن يأخذ منه إقرارًا على أفعاله في بني أمية، وفتوى العز بن عبد السلام في المماليك، وخطاب ابن تيمية لقازان قائد

(١) أخرجه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).
(٢) وفيات الأعيان (٢٨٤/٦)، سير أعلام النبلاء (٥٠٥/٤). وحكاها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٦٢/٥-٣٦٣) وفي تاريخ الإسلام (٤٩١/٣) عن مالك بن دينار مع المهلّب بن أبي صُفرة.

التتار، والطاهر بن عاشور في مواجهة بورقيبة في الإفطار في رمضان، وغيرهم على مر العصور؟ أين هي في عصرنا هذا؟ هل صلحت المجتمعات واستقامت أمور الناس حتى انتفت الحاجة إلى هذه المواقف؟ أم هو تقصير العلماء وركونهم إلى الترخّص، والرضا بالسكوت عن الباطل، وترك بيان الحق؟!

ولو أنّ بعض العلماء قاموا بما يجب عليهم لقيل: لعلّ للساكتين عذرًا بأنْ عدّوا الأمر من فروض الكفايات، إذا قام به مَن يكفي سقط عن الباقين، لكن الواقعُ أنّ هناك كبائر وموبقات، بل ومكفّرات شاعت في مجتمعاتنا تمرّ دون نكير، أو تنكرها أصواتٌ خافتةٌ لا تكاد تُسمع.

ليس المطلوب في بيان الحق تهييج الناس، والتشغيب على النظام العام، والإغراء بالفوضى، بل بيان ما يحصل به قوام الدين، ومعرفة أحكامه مع توخّي الحكمة في الأسلوب، وسلوك طريق التعريض بالأشخاص على المبدأ النبوي: (ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا أو يقولون كذا)

رسالة من الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله:

ولقد وجد الشيخ محمد رشيد رضا في عصره حالاً شبيهًا بما نعيشه اليوم، فسادًا وظلمًا في السلاطين، وسكوتًا مِن العلماء عن النصيحة لهم والإنكار عليهم، حتى التبس الأمرُ على الناس، ودخلت عليهم اعتقاداتٌ فاسدة، فكتب رسالةً في مجلّة المنار بعنوان: «حال المسلمين في العالمين ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين» كأنّه يخاطبنا بها اليوم، يقول فيها[1]:

(١) مجلة المنار المجلد التاسع، غرة جمادى الأولى - ١٣٢٤هـ، ٢٣ يونيو - ١٩٠٦م، ص (٣٥٧).

«صار أكثرُ المسلمين يجهلون حقيقةَ السُّلطةِ في الإسلام، بل صار الكثيرون مِن عامّتهم يعتقدون أنّ للسلطان أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بتفويضٍ مِن الشرع، كأنّ الشرعَ جعل له سلطانًا على الشرع ينسخ منه ما يشاء ويحكم ما يشاء، وينفذ مِن أحكامه ما يشاء ويُلغي منها ما يشاء، فله مِن التّصرف فيه ما لم يكن لمن جاء به؛ إذ قال ﷺ: (لو أنّ فاطمة بنتَ محمّدٍ سرقت لقطعتُ يدَها) رواه البخاري[1]، بل منهم مَن يعتقد أنّه غيرُ مساوٍ لسائر المسلمين في الأحكام الشرعية».

«أمّا أهلُ العلم والفَهم فهم يَدَّعُونَ أنّهم أُخِذُوا بالقهر وغُلبوا على أمرهم، فإذا نطقوا بالحقِّ عَمِل سيفُ الباطل عملَه في رقابهم، فلم يبقَ لهم إلا الرِّضى بأضعف الإيمان وهو الإنكارُ بقلوبهم، هل يُصدَّق بهذه الدعوى -دعوى أضعف الإيمان- مَن يمدح المستبدّين ويُدهِنُ لهم ويدافع عنهم؟ هل يُصدَّق بها مَن يعمل لهم ويقبل وظائفَهم ورتبَهم وشارات الشرف التي ابتدعوها لأعوانهم؟ ... فإنّ الله تعالى ما فرض القيام بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أمّة -أي جمعية تكوّن من الأمة- إلّا لتكون بمأمن مِن المستبدّين، مسيطرة عليهم باسم الدين، فماذا فعل هؤلاء العلماء بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وبقوله ﷺ: (مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[2]».

«إذا كتب علماء الأزهر أو علماء الهند بذلك إلى سلطاني الترك والفرس وسلطان المغرب وأعلنوا نصيحتَهم في الجرائد، فهل يخشون أنْ يُقتَلوا أو يصلبوا أو ينفَوا من الأرض؟ أيحسبون

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) ومسلم (١٦٨٨).
(٢) أخرجه مسلم (٤٩).

أنّ كتابتَهم لا تفيد ولا تنفع؟ كيف وهم يعلمون أنّ بعضَ السلاطين يهتم لكلمةٍ يقولها في ذلك أحدُ أصحاب الطرابيش[1] الذين لا قيمةَ لأقوالهم عند السَّوادِ الأعظم مِن المسلمين؟

لا شك عندنا أنّ كتابةَ علماء مصر وعلماء الهند إلى السلطان العثماني بطلب الإصلاح تفعل في هذه الدولة -التي يتمنى الجميعُ صلاحَ حالها- ما لا تفعله الثوراتُ التي تجرى فيها أنهارُ الدماء طلبًا للإصلاح وإزالة الاستبداد في سائر الممالك».

«وكان الذي مكّن لحكامِ المسلمين سلطانَ الاستبداد هو اعتقادُ رعاياهم أنّ الدِّينَ يوجب طاعتَهم على الإطلاق، وكان الحقُّ المجمع عليه أنه لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق، فالواجبُ على العلماء الأحرارِ في مثل الهند ومصر أن يبيّنوا لملوك المسلمين وعامّتِهم الحقَّ في ذلك ما دام في القوس مَنزَع، أن يطالبوا الملوك بالعدل والإصلاح في الأرض بحكم الشورى».

«إذا سلّمنا ما يقوله بعضُ أصحاب الجرائد وما يعتقده بعضُ المخلِصين مِن مسلمي مصر وغيرهم أنّ انتقادَ جرائد المسلمين لإدارة الدّولة ومطالبتها بالإصلاح تشهيرٌ ضار؛ فهل

> **صار أكثرُ المسلمين يجهلون حقيقةَ السُّلطةِ في الإسلام، بل صار الكثيرون مِن عامّتهم يعتقدون أنّ للسلطان أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بتفويضٍ مِن الشرع، كأنّ الشرعَ جعل له سلطانًا على الشرعِ ينسخ منه ما يشاء ويحكم ما يشاء، وينفذ مِن أحكامه ما يشاء ويُلغي منها ما يشاء**

(١) جمعُ طَربوش، وهو غطاءٌ للرأس كان يلبسه الرجال، أسطوانيّ الشكل، يُصنع مِن الصوف أو نحوه، ويكون عادة أحمر اللون. ينظر: معجم اللغة العربيّة المعاصرة (١٣٩٢/٢).

يمكن أنْ يسلّم عاقلٌ لجاهلٍ يقول بلا فهم: إنّ نصيحةً يكتب بها علماءُ المسلمين للسلطان قيامًا بما أوجبه الله تعالى تُعَدُّ تشهيرًا ضارًّا».

رحم الله علماءَنا الكبار الذين أخذوا العلم بحقِّه، وقاموا بما أوجب الله عليهم، وتحمّلوا في سبيل ذلك الأذى بكلِّ أنواعه، فخلّد التاريخُ ذكرَهم، أما جزاؤهم الحقُّ فذِكرُ الله لهم وما أعدّه لأوليائه الصالحين المصلحين مِن الكرامة والدرجة العالية.

حصاد الإلحاد

أ. أحمد خضر المحمد
ماجستير عقائد وأديان، مسؤول ملف الإلحاد في مركز مناصحة.

قد تغالب المرءَ الشهواتُ والشبهاتُ فتغلبه، ويُدرّجه الشيطان في خطواته حتى يوقعه في شرَك الإلحاد، ويجعلَه من جنده في الغواية والضلالة، عندئذٍ لن يفهم هذا الملحد علّة وجوده في الحياة، والغاية من خلقه، ومهما تلبّس بلبوس العلم، فإنه سيبقى بعيدًا عن منهجياته المنضبطة، ومهما ادّعى في نفسه من طيب قلبٍ وكرم خلق، فإنّه لن يصل إلى قاعدةٍ موضوعيةٍ في التمييز بين الخير والشر، إلا ما أشرب من هواه.

تمهيد:

حين يُجعل العلم بديلاً من الدين، وتُفترض مناقضتهما لبعضهما، والطبيعة بديلاً من الله، فإنّ الفساد سيعمّ البرّ والبحر معًا، وسيخيّم الشقاء على الحياة والأحياء جميعًا، وذلك بما كسبت أيدي الناس، وتلك نتيجةٌ حتميةٌ لكلّ من يتنكّر لفطرته؛ فيؤمن بالصدفة والعشوائية بدلاً من الإيمان بخالق السماوات والأرض.

سنطوف في هذا المقال لنقف على حصاد الإلحاد وآثاره السيئة العميقة على شتى الأصعدة؛ في علة الخلق وغاية الحياة، وفي المجال الأخلاقي، وفي المجال العلمي.

الآثار السلبية للإلحاد في علّة الخلق وغاية الحياة:

كلّ الناس على اختلاف معتقداتهم وثقافاتهم يشتركون في التفكير بالأسئلة الفطرية؛ ما أصل الخلق؟ وما غايته؟ وما مصيرنا بعد الموت؟ فهذه الأسئلة الفطرية الغائيّة هي التي تميّزنا عن الحيوانات التي لا تحرّكها إلا الغرائز. والملاحدة عمومًا يرون الإنسان ذرّاتٍ ماديةً لا روح فيها، أو وسخًا كيميائيًّا لا إرادة له[1]، وما دام ذلك كذلك، فلا يوجد هدفٌ موضوعيٌّ للحياة، إنّما أهدافٌ شخصيةٌ لكلّ فردٍ.

(١) يقول عالم الفيزياء الملحد ستيفين هوكينغ Stephen Hawking: «الجنس البشري مجرد وسخ كيميائي موجود على كوكب متوسط الحجم»، [From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken (١٩٩٥)].

ويلخّص لنا البروفيسور الملحد ألكس روزنبرغ Alex Rosenberg حقيقة الحياة وغايتها في نظر الملحدين في مقدمة كتابه (دليل الملحدين للحقيقة) في أسئلةٍ وأجوبةٍ بقوله:

- هل ثمّة إلهٌ؟
لا.

- ما طبيعة الواقع؟
ما تقوله الفيزياء.

- ما الغرض من الكون؟
لا يوجد.

- ما معنى الحياة؟
كما سبق.

- لماذا أنا هنا؟
حظٌّ غبيٌّ فقط.

- هل الصلاة تعمل؟
بالطبع لا.

- هل يوجد روحٌ؟
أنت تمزح!

- ماذا يحدث عندما نموت؟
كل شيء يسير كما كان من قبل، باستثنائنا.

- ما الفرق بين الصواب والخطأ، الخير والشر؟
لا يوجد فرقٌ أخلاقيٌّ بينهما.

- لماذا يجب أن أكون أخلاقيًا؟
لأنّه يجعلك تشعر بأنّك أفضل من أن تكون فاسدًا.

- هل الإجهاض أو القتل الرحيم أو الانتحار أو دفع الضرائب أو المساعدات الخارجية أو أي شيء آخر لا تحبّه ممنوع أو مسموح به أو إلزامي في بعض الأحيان؟

كل شيء مباحٌ.

- هل للتاريخ أيّ معنى أو غرض؟

إنه مليء بالصخب والغضب، لكنّه لا يدلُّ على شيء[١].

وهذا زعيم الملاحدة دوكينز Dawkins يصف كوننا الذي نعيش فيه بأنّه «في حقيقته بلا تصميمٍ، وبلا غايةٍ، وبلا شرٍّ ولا خيرٍ، لا شيء سوى قسوةٍ عمياء لا مباليةٍ»[٢].

أمّا بعد الموت ففناء مطلقٌ، وكلّ مساعي الإنسان تنتهي بلحظة موته، وقد أخبرنا الله تعالى عن هذه العقيدة الفاسدة بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، حيث ترينا هذه الآية تخبطات الملحدين في فهم رسالة الحياة، لذلك يحاولون سدّ هذا الخواء الروحي والعذاب النفسي بأساليب غريبةٍ ومتناقضةٍ.

فريتشارد دوكينز يعتقد أنّ السؤال عن الغاية من وجود الإنسان -وهو أهمّ مخلوقٍ في هذا الوجود- سؤالٌ سخيفٌ، فحينما سئل عمّا إذا كان العلم يجيب عن سؤال: «لماذا نحن هنا في هذه الحياة؟» أجاب: «سؤال سخيف لا يستحق جوابًا، وليس من حقّ السائل أن يسأله!»[٣]، علمًا أنّ دعاة العلم التجريبي يحاولون معرفة الغاية من وجود الأشياء والظواهر الطبيعية حولنا. فهل يعقل أن يستكشف الإنسان الأرض والسماء وما

(١) ينظر: كتاب دليل الملحد إلى الحقيقية (See The Atheist's Guide to Reality)، للمؤلف: (AlexRosenberg)،ص (١٣).

(٢) ينظر: كتاب نهر خارج الجنة (River out of Eden)، للمؤلف: (Dawkins)، ص (١٥٥).

(٣) لقاء مع داوكينز في مانشستر سنة ٢٠٠٣م، على منصة Youtube بعنوان: ريتشارد داوكنز يعجز عنـالإجابة ويسميه سؤال سخيف.

فيهما وما بينهما، ثم يجهل نفسه التي بين جنبيه، والغاية من وجودها؟

واختار فريقٌ آخر من الملاحدة الهروب من سؤال الغاية وإشغال النفس بأيّ شيءٍ، فما دامت العبثية هي التي تحكم عالمنا هذا فليعبّ المرء من شهواته وملذّاته ما تمنّى، وليملأ وقت فراغه بما يشاء، هذا ما نصح به مخرج الأفلام الملحد وودي آلن Woody Allen متابعيه، وأنّ على المرء أن يلهي نفسه بأيّ شيءٍ ويشتّتها؛ كيلا يواجه الحقيقة المرّة عن المصير بعد الموت(١).

وهنا نلاحظ أنّ كل هذه المحاولات للالتفاف على الشعور الفطري بالغائية؛ ما هي إلا حِيَل نفسية يخدع بها الملحدون أنفسهم، فيزداد قلقهم وصراعهم النفسي، ويَحيون حياة العبثية والتفاهة، وبعضهم يرضى بحياة الضنك في إسراره ويستمرّ في الخداع في إعلانه، وبعضهم يفرّ من هذه الحياة معلنًا كلماته الأخيرة قبل انتحاره: «سامحوني حاولت النجاة وفشلت»! معبّرًا فيها عن حقيقته التي كان يهرب منها قولاً وفعلاً.

في حين أنّ الحقيقة الواضحة المتوافقة مع الفطرة أنّ الإنسان مخلوق لغايةٍ عظيمةٍ، هي عبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن مجالات هذه العبادة: عمارة الأرض ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وقد أخبر الله تعالى أنّه سخّر كلّ شيء على الأرض للإنسان، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. والإنسان يتبوّأ منزلة عظيمة بين المخلوقات، وهو مكرّم في الإسلام أيّما تكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ

(١) لقاء مع وودي آلن Woody Allen في المؤتمر الصحفي الذي عقد عن فلم (Irrational Man) سنة ٢٠١٥م، على منصة Youtube بعنوان: وودي آلن - معنى الحياة (مترجم).

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي المـقابل نجد أنّ انعدام الغائية لدى الملحد سببٌ رئيسٌ في فراره من الإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، ليسكنه القلق بعد ذلك، وتصاحبه الهموم والاضطرابات النفسية أينما حلّ وارتحل.

هذا عدا عن الاختلالات الفكرية لدى الملاحدة، وتخبطهم في الموازين العقلية تحليلاً وتعليلاً، فلا وجود لقانون السببية، ولا مصدرية إلا العدمية، فليسوا على قلب رجل واحد إلا في العدمية والفجور. ولذا فهم في الحقيقة يجترون شبهات من قبلهم، ولا جديد عندهم إلا في نوع الفجور الذي يتجرؤون عليه التزامًا منهم بالعدمية وبانعدام الترابط المنطقي بين الأسباب ونتائجها.

> **انعدام الغائية لدى الملحد سببٌ رئيسٌ في فراره من الإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى، ليسكنه القلق بعد ذلك، وتصاحبه الهموم والاضطرابات النفسية أينما حلّ وارتحل**

الآثار السلبية للإلحاد في المجال الأخلاقي:

من أكبر المعضلات التي تواجه الخطاب الإلحادي: مسألة الأخلاق؛ إذ لا يمكن لمجتمع أن يعيش دون منظومةٍ أخلاقيةٍ ثابتةٍ ملزمةٍ، وهنا يتخبّط الملاحدة في تقرير مصدرية الأخلاق، أو وجود أخلاقٍ موضوعيةٍ من حيث الأصل.

أمّا أتباع الدين السماوي فيسندون مصدر الأخلاق إلى الخالق، ويعتقدون بالحساب والجزاء في الآخرة، خلافًا للملحد الذي ينكر وجود الله تعالى، فينكر -تبعًا لذلك- أيّ إلزامٍ خُلقيٍّ.

ولعلّ هذا ما حدا بكثيرين من اللادينيين إلى تنكّب الصراط المستقيم، «لينطلق في حياته فاجرًا، دون أن تقف في طريقه تصوّرات قانون العدل. قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥-٦]»[١].

ونحن هنا لا ننفي وجود ملحدين ذوي خلق حسن، يقول المفكر الإسلامي بيغوفيتش: «يوجد ملحدون علىً أخلاقٍ، ولكن لا يوجد إلحادٌ أخلاقيٌّ»[٢].

وقد حاول الملاحدة الالتفاف على مأزق مرجعية الأخلاق لديهم، فتخبّطوا يمنةً ويسرةً دون أن يصلوا إلى ظنٍّ أو شبهه في حلّ هذه المعضلة، فهذا الملحد الشهير سام هاريس في كتابه (المشهد الأخلاقي: كيف يمكن للعلم أن يحدّد القيم الإنسانية؟) حاول أن يسوّغ ما هو أخلاقي بما يحقّق للبشرية السعادة والرخاء، وقد علّق أستاذ الفلسفة كواميه أنتوني Kwame Anthony بإجمال على رؤية هاريس الأخلاقية قائلاً: «في الحقيقة فإنّ ما ينتهي هاريس إليه هو شبيهٌ جدًا بالمذهب النفعي، وهو موقفٌ فلسفيٌّ ظهر منذ قرنين من الزمن»[٣].

وبناءً على ما سبق نرى أنّ الالتزام بلوازم الإلحاد يجعل الملحد ساقطًا في نسبيةٍ لا نهائية من القيم، الأمر الذي يؤدّي إلى إيمان الملحدين ببعض «الأخلاقيات» الصادمة، مثل: زنا المحارم، والإجهاض، والشذوذ الجنسي، والتحرّش، والاغتصاب، وإتيان البهائم، حتى بات الإلحاد رديفًا للفجور، والجنس، وشرب الخمور، وتعاطي المخدرات. ونظرةٌ عجلى في الإحصاءات ما بين الدول التي تدين بالإسلام وبين الدول التي يدين غالبية

(١) كواشف زيوف، لعبد الرحمن الميداني، ص (٤٩٨).
(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، لعلي عزت بيغوفيتش، ص (١٧٥).
(٣) مقالة: الإلحاد والأخلاق.. إذا كان الإله خرافة فكل شيء مباح، لإبراهيم السيد، على موقع الجزيرة نت.

سكانها بالإلحاد، تُظهر فرقًا شاسعًا في معدّلات التحرّش والاغتصاب، وتعاطي الحشيش والمخدّرات.

ويكفي هنا أن نشير إلى بروفيسور القانون الدنماركي الملحد فاجن جريف Vagn Greve الذي يطالب بعدم تجريم زنا المحارم، وتناول حبوب منع الحمل فقط. ويعلل ذلك بأنّه طالما العلاقة بين بالغين بمحض إرادتهما الحرّة فلا يحق للدولة التدخل والعقاب، ويقترح حذف القانون الذي يعاقب بالسجن ست سنواتٍ لمن يمارس زنا المحارم[١]. أمّا في ألمانيا فقد خرج جمعٌ من الملاحدة والعلمانيين في تظاهراتٍ يطالبون فيها بالسماحِ لهم بممارسة الجنس مع الحيوانات، وعدم تجريمهم وَفقًا لقانون حماية الحيوان في بلادهم[٢].

وفي السياق نفسه نجد أنّ نسبة الجرائم في المجتمعات اللادينية أكثر منها في البلدان المؤمنة، والسبب هو ما أشرنا إليه آنفًا، وهو ما صرّح به جيفري دامر Jeffrey Dahmer القاتل المتسلسل الذي قتل خمس عشرة ضحية حين قال في إحدى المقابلات معه: «لأنّه دائمًا ما كنت أصدق تلك الكذبة: أنّ نظرية التطور حقيقة، وأنّنا جميعًا جئنا من بكتيريا، وعندما نموت فهذه هي النهاية، ولن يكون هناك شيء! النظرية كلّها تقلّل من قيمة الحياة»[٣].

ولا غضاضة عند كثيرٍ من الملحدين من قتل ملايين الناس للمحافظة على الاقتصاد العالمي؛ فكلنا سمع أو قرأ عن

(١) مقطع مرئي بعنوان: يقول دكتور القانون البروفيسور فاجن جريف إن زواج سفاح القربى بين أبناء العمومة البالغين والأشقاء أمر مبرر، بل وقانوني (Adult Cousin & Sibling Incest Marriage is Justified, even legal, says Dr. of Law Prof. Vagn Greve)، على منصة Youtube.

(٢) خبر بعنوان: مطالبات بممارسة الجنس مع الحيوانات تثير الجدل في ألمانيا، على موقع نبض، ١٧ نيسان أبريل ٢٠٢٤م.

(٣) مادة بعنوان: جيفري دامر يمثل نظرية التطور (Jeffrey Dahmer Epitomizes Evolutionary Theory)، على موقع airocross.com، بتاريخ ١٣ أكتوبر ٢٠١١م.

المليار الذهبي؛ والذي يعني ضرورة المحافظة على ثراء الدول الصناعية الغنية، وذلك من خلال استغلال ثروات العالم الثالث، والتخلّص من شعوبها بأيّ طريقةٍ كانت، فهذا ديفيد أتينبورو David Attenborough، ينادي بالتوقّف عن إطعام دول العالم الثالث للحدّ من عدد السكان[١]، ومثلهما سام هاريس Sam Harris الذي لا يجد حرجًا من قتل الناس وَفق اعتقاداتهم، فيصرّح: «إنّ بعض المعتقدات خطيرةٌ جدًا لدرجة أنّه من الممكن أن يكون قتْلُ الناس الذين يعتقدون هذه المـعتقدات فعلاً أخلاقيًا»[٢]، ويردّد مرارًا أنَّ أمريكا ليست في «حربٍ على الإرهاب»، إنّما في «حربٍ على الإسلام»، لذلك دعا إلى الهجوم النووي (الاستباقي) على أيّ نظامٍ إسلاميٍّ لمجرّد أنّه «يمتلك» أسلحةً نوويةً[٣]!

لا غرابة في هذا كلّه؛ فالأخلاق الداروينية لا تنتج سوى الحرص والتكالب على الدنيا، وسحق الفقراء لمصلحة الأغنياء. وآليّة الصراع من أجل البقاء، والبقاءُ للأصلح لا يفرز إلا الوحشيةَ والدَّناءة، والمجتمعُ الدارويني لا يكوِّن إلا مجتمعًا فاشيًّا؛ ينتشر فيه التعصب العنصري والتصفية العِرقية.

إنّ التشريعات الأرضية التي تُلزم بالأخلاق لن تُوجِد في ضمائر الناس وازعًا لفعل مأمور أو ترك منهيٍّ إلا ما أشَربت القلوب من هواها. في حين أنّ ارتباط الأخلاق بالقيم الدينية الصافية التي جاء بها الإسلام وارتباطها بالإيمان باليوم الآخر هو معيار ثباتها، وهو الحافز على الالتزام بها طاعةً لله تعالى وطلبًا لرضاه والجنّة، وخوفًا من غضبه ومن النار.

(١) مقالة: توقفوا عن إطعام دول العالم الثالث لتقليل عدد السكان (STOP FEEDING THIRD WORLD NATIONS TO REDUCE POPULATION) للكاتب: David Attenborough، على موقع: archives.infowars.com.

(٢) كتاب: نهاية الإيمان (The End of Faith)، للكاتب: Sam Harris، ص (٥٢-٥٣).

(٣) المرجع السابق، ص (١٢٩).

> حاول الملاحدة الالتفاف على مأزق مرجعية الأخلاق فتخبّطوا يمنةً ويسرةً دون أن يصلوا إلى ظنٍّ أو شبهه في حلّ هذه المعضلة، وسقطوا في نسبيةٍ لا نهائية من القيم، مما أدى إلى إيمان الملحدين ببعض «الأخلاقيات» الصادمة المنحرفة

الآثار السلبية للإلحاد في المجال العلمي:

لا تختلف جناية الإلحاد في حقل العلم والثقافة عن مثيلتها في الأخلاق أو الغائية، فمن يعتقد أنّ هذا العالم نشأ دون خالق كيف سيوظّف قانون السببية في حياته؟ ومن يرى أنّ الصدفة والعشوائية هي التي تتحكّم في تطوّر المخلوقات كيف سيفيد من قوانين الحياة وانتظامها في فهم غائيّة حركة الكون من الذرّة إلى المجرّة؟ ومن يصدّق خرافات الملاحدة وسفسطاتهم كيف سيفرّق بين حقائق العلوم وزيوفها؟

وهذه البَدَهيّات الضرورية هي التي تبتدأُ منها العلوم وتنتهي إليها، وهي مستغنيةٌ عن البرهان، بل إليها المرجع في العملية الاستدلالية[١]. ومع ذلك تجد الملحد يتنكّر لها، ويرفض بدهيات الحسّ والعقل زعمًا منه أنّه لا يؤمن إلا بما أثبتته التجارب في المخبر، لذلك لن ينتفع بعقله، ولن يكون قادرًا على إدراك الحقائق أيًّا كانت، يقول ابن تيمية رحمه الله: «فإذا وقع الشكّ فيها انقطع طريق النظر والبحث؛ ولهذا كان من أنكر العلوم الحسية والضرورية لم يناظر»[٢].

ومن أقرب الأمثلة على ذلك: إصرار الملاحدة على رؤية الخالق سبحانه، فإن رأوه وإلا فهو غير موجودٍ. وهي شبهةٌ داحضةٌ

(١) ينظر: شموع النهار، لعبد الله العجيري، ص (٣٩).
(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٣/٣١٠).

لا تستحقّ الردّ، فثمّة أمثلةٌ كثيرةٌ لما لا نراه وهو موجودٌ يقينًا، من ذلك الجاذبية، وذرات أجسادنا، وأجزاء الذرات، والهواء، والمـوجات الصوتية والتلفزيونية، والمجرّات... نؤمن بهذا كلّه من خلال تأثيراتها المختلفة أو العلم الذي يخبرنا عنها.

ومن ذلك استدلال الملحدين على عدم وجود الخالق باكتشاف الفاعلية السببية، بل جعلوا من اكتشاف العلم أسباب حدوث الأشياء دليلاً على أنّها لم تحدث بقدرة خالق، وأنّ الإنسان في العصر الحديث ليس بحاجةٍ إلى الإيمان بالخالق حتى يفهم الكون وطريقة سيره، وهذا ما عبّر عنه واينبرج Weinberg بقوله: «بل إنّه حتى القرن التاسع عشر كان تصميم النباتات والحيوانات يعدّ دليلاً بيّنًا على وجود الخالق، ما تزال في الطبيعة أشياء لا حصر لها لا نستطيع تفسيرها... وعلينا اليوم لمعرفة الأسرار الحقيقية أن ندرس علم الكون وفيزياء الجسيمات العنصرية... وبالنسبة لأولئك الذين لا يرون تعارضًا بين العلم والدين، لقد أصبح انسحاب الدين من الأرض التي يحتلّها العلم يكاد يكون كاملاً»[١].

والحقّ أنّه لا تعارض بين تفسير العلم لكلّ شيءٍ في الكون وبين الإيمان بالله تعالى، بل الإيمان بالله تعالى أصلٌ لصحة تفسير العلم، يقول جون لينكس John Lennox، وهو عالم رياضيات مؤيد للمسيحية ومعارض وناقد للإلحاد: «النقطة التي نريد هنا أن نلمّ بها أنّ الله ليس بديلاً عن العلم كتفسير، فلا يجوز أن نفهمه كإلهٍ للفراغات، بل على النقيض من ذلك هو أساس جميع التفاسير... من المهمّ التأكيد على هذا الأمر؛ لأنّ المؤلفين المؤثّرين مثل ريتشارد دوكينز سيصرّون على تصوّر

(١) أحلام الفيزيائيين، لستيفن واينبرغ، ترجمة: أدهم السمان، ص (١٩٥).

الله كبديلٍ تفسيريٍّ للعلم، وهذه فريةٌ لا توجد في الفكر الديني بأيّ عمقٍ كان»[١]

والعجيب هنا أن نرى الملحد يستميت في إثبات خرافاته الإلحادية وخيالاته الافتراضية -كفكرة التطوّر- بغير دليلٍ ماديٍّ واحدٍ ملموسٍ حسب طريقة تفكيره! وذلك إمّا بالمسارعة إلى (إله فجواتٍ) خاصٍّ به لتفسير كلّ ما يجهله من وظائف الأعضاء بكونها أدلةً على التطوّر، وإمّا بالمزيد من تأليف القصص الوهمية عن التطوّر في الماضي السحيق، والتي لم ولن يراها أحدٌ، وإمّا بمزيدٍ من الغشّ والتزوير لأدلةٍ ما تلبث أن يُكشف زيفُها، مثل تزويرهم وتأليفهم للعديد من حفريات الكائنات الوسيطة التي لم توجد في الحقيقة[٢].

لقد ظنّ هؤلاء العلماء أنّهم قادرون على فهم كلّ الحقائق الوجودية من مختبراتهم، وما بلغ بهم هذا الاعتقاد سعة مكتشفاتهم وتطوّر مخترعاتهم، إنّه طغيان البشر، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧]. لكنّ الحقيقة أنّ للعلم حدودًا، وقد أدرك كثيرٌ من العلماء المعاصرين قصور العلم التجريبي، وعجزه عن كفاية الاحتياجات الإنسانية.

وقد ألّف سوليفان Sullivan كتابًا خاصًّا في هذه القضية سمّاه (حدود العلم)، محّضه للتأكيد على قصور العلم الإنساني واستحالة إحاطته بكلّ الحقائق الوجودية، وأثبت أنّ له حدودًا يقف عندها. ومن الأمور التي يعجز العلم التجريبي عن الوصول إليها: القضايا المتعلقة بالأخلاق والمبادئ والقيم والغاية ونحوها[٣]. ويعترف ستانليStanley آخِرَ عمره قائلاً: «إنَّ العلمَ يَصطاد في بحرِ الواقعِ بنوعٍ مُعيَّنٍ مِن الشباك يُسمّى

(١) أقوى براهين جون لينكس، جمع أحمد حسن، ص (٦٧).

(٢) ينظر مقالة: المواطن الملحد (خطر الإلحاد على المجتمع)، لأحمد حسن، على موقع الحصن، alhesn.net.

(٣) ينظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، لسلطان العميري، ص (٤٤٣-٤٤٤).

المـنهجَ العلميّ، وقد يكون في البحر -الذي لا يُمكننا أن نَسبر غوره- الكثير ممّا تعجز شِباك العلم عن اقتناصه»[١].

> «الله ليس بديلاً عن العلم كتفسيرٍ ... بل على النقيض من ذلك هو أساس جميع التفاسير... من المهمّ التأكيد على هذا الأمر؛ لأنّ المؤلفين المؤثّرين مثل ريتشارد دوكينز سيصرّون على تصوّر الله كبديلٍ تفسيريٍّ للعلم، وهذه فريةٌ لا توجد في الفكر الديني بأيّ عمقٍ كان»
>
> جون لينكس

الخاتمة:

نخلص ممّا سبق إلى أنّ الإنسان في ظلّ الإلحاد وسخٌ كيميائيٌّ تافهٌ، حياته عبثيةٌ بلا معنى، وأخلاقه نفعيةٌ بلا ضوابط. ومهما بلغ في علومه واكتشافاته فسيبقى تائهًا عمّا خلق له، غافلاً عن الآخرة، لا يحجزه شيءٌ عن الشذوذ والإباحية والجريمة والظلم.

أمّا الإيمان بالله والتسليم له فهو يعلي من قيمة الإنسان، ويجعله صاحب رسالةٍ وسيادةٍ، ويجيب عن الأسئلة الوجودية، ويفسر له ما يعجز العلم التجريبي عن تفسيره، وييرسم له حدود علاقته بخالقه وبالبشر وبقية المخلوقات والموجودات، و«هو الطريقة الإنسانية الوحيدة للخروج من ظروف الحياة المأساوية التي لا حلّ لها ولا معنى، إنّه طريقٌ للخروج دون قنوطٍ ولا تمرّدٍ، ولا عدميّةٍ ولا انتحارٍ»[٢].

(١) بساطة العلم، لبيك ستانلي، ص (٢٢٩).

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، لعلي عزت بيغوفيتش، ص (٣٩٦).

جنايات القطاع غير الربحي الغربي (مؤسسة بيل غيتس أنموذجاً)

د. عبد الله المبارك
باحث في الفكر والحضارة الغربية.

الأعمال الخيرية المؤسسية وما ينتج عنها من قطاع غير ربحي هائل هي خلاصة الإنتاج البشري في تطوير العمل الخيري والوصول به إلى مستويات غير مسبوقة في الحجم والتنوع والتأثير، لكن ثمة صدمة تواجه من يتابع النشاطات التي تندرج تحت بند الأعمال والمشروعات غير الربحية، فبدلاً من أن تكون هذه الأعمال بلسمًا يداوي المحزونين ويضمد جراحاتهم، إذا ببعضها يقطر سمًا ناقعًا يفسد الفطر ويلوث الأخلاق والعقول.

في عام ٢٠٠٠م تأسست مؤسسة بيل وميليندا غيتس الخيرية (Bill & Melinda Gates Foundation – BMGF) التي تُعنى بالأعمال المتعلقة بتطوير التعليم والصحة والزراعة والمنح الدراسية والبحثية، ومقرها في سياتل بولاية واشنطن الأمريكية. وهذه المؤسسة الخيرية (غير الربحية) تَضاعَفَ حجمها بانضمام وارن بافيت (Warren Buffett) في عام ٢٠٠٦م حينما قدَّم بافيت (١٠,٤٥) مليون سهم للمؤسسة التي تلقت أكثر من (٣٩) مليار دولار إجمالاً في صورة أسهم من شركته المسماة بركشاير هاثاواي (Berkshire Hathaway)[١].

وفي عام ٢٠٠٧م تم تصنيف مؤسسَيها على أنهما ثاني أكثر المحسنين سخاءً في الولايات المتحدة (غيتس مع وارن بافيت) وتقدر ثروة بيل غيتس في عام ٢٠٢١م بنحو (١٣٧) مليار دولار، وثروة ميليندا بنحو (٦) مليارات دولار[٢] بعد انفصالهما بالطلاق، وتذبذب أسعار الأسهم العالمية بصفةٍ مستمرة مما يؤدي إلى الاختلاف في الأرقام المالية السنوية.

(١) ينظر: موقع سكاي نيوز عربية، مقال بعنوان: (وارن بافيت.. ٥١ مليار دولار تبرعات خيرية منذ ٢٠٠٦م)، بتاريخ ٢٣ يونيو ٢٠٢٣م.

(٢) ينظر: أخبار RT الروسية، مقال بعنوان: (بيل غيتس وطليقته يتصدران التبرعات الخيرية لعام ٢٠٢١م)، بتاريخ ٣١ ديسمبر ٢٠٢١م.

وحول رأسمالية غيتس الخيرية أكَّدت صحيفة الغارديان البريطانية أن مؤسسة غيتس ربحت (٢٠) مليار دولار فقط خلال فترة كورونا كوفيد ١٩، وقد ورد في تقرير حملة (أمريكيون من أجل العدالة الضريبية) أن الثروة الجماعية لـ(٦٥١) مليارديرًا في أمريكا قد ارتفعت بمقدار (١,١) تريليون دولار خلال فترة كورونا![1] في الوقت الذي أفلست فيه (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف شركة أمريكية[2]! وهو ما أثار التساؤلات حول صناعة المرض والدواء في الصحافة العالمية ولدى بعض الباحثين، كما أن هذا الربح وما يقابله من خسائر لدى الشركات الأخرى يكشف الوجه المتوحش والجنائي من الرأسمالية الخيرية، ومن رأسمالية السوق الاقتصادية العالمية على حدٍ سواء.

ومنذ تأسيس المؤسسة -حسب موقعها- وَهَبَت مؤسسة غيتس ودعمت مجموعة واسعة من التطورات الاجتماعية والصحية والتعليمية والزراعية، بما في ذلك إنشاء منح غيتس كامبريدج الدراسية في جامعة كامبريدج، ومنذ عام ٢٠٠٨م أطلق غيتس على مؤسسته وبرامجه وأعماله اسم «الرأسمالية الخيرية»، وتحولت مؤسسته بالفعل حسب تسمية غيتس نفسه إلى «الرأسمالية الخلاقة Creative Capitalism»، وانضمت مؤسسات وشركات أخرى إلى حملته بحدث تاريخي كبير يُسمَّى «تعهد العطاء The Giving Pledge» عام ٢٠١٠م، وهو التعهد -غير الرسمي- الذي نفَّذه مجموعة كبيرة من الأثرياء في أمريكا فيما بينهم بالتحول بمعظم ثرواتهم للقطاع غير الربحي المعفى ضريبيًا، ليشكل هذا التعهد الانطلاقة الكبرى

(١) مقالة: عشرة مليارديرات يحصدون ٤٠٠ مليار دولار من ثرواتهم خلال الوباء (Ten billionaires reap $400bn boost to wealth during pandemic) للكاتب Rupert Neate، على موقع صحيفة الغارديان (the guardian)، بتاريخ ١٩ ديسمبر ٢٠٢٠م.

(٢) مقالة: تستخدم الشركات الصغيرة لتحديد الاقتصاد الأمريكي. ويمكن للوباء أن يغير ذلك إلى الأبد (Small business used to define America's economy. The pandemic could change that forever)، للكاتب Heather Long، على موقع صحيفة واشنطن بوست (washingtonpost)، بتاريخ ١٢ مايو ٢٠٢٠م.

للرأسمالية الخيرية؛ لتحقيق أهداف معلنة وغير معلنة، بعيدًا عن ما هو مأمول اجتماعيًا من هذا العطاء الذي تكشفت بعض أجنداته، وذلك وفقًا لكثير من الأبحاث والدراسات والنتائج الغربية المعنية، والتي سَيَرِد بعضها في هذا الموضوع.

ولهذا فلمؤسسة غيتس -غير الربحية- وجهٌ آخر ربحي، وُصف بالنشاط التجاري الكبير المحموم مع شركات الأدوية الكبرى ومراكز الأبحاث الطبية والعالمية ولقاحات كوفيد ١٩، ومع موانع الحمل وتطعيمات الأطفال، وهي حسب بعض الأبحاث والدراسات مثار جدل عالمي كبير في أضرارها خاصةً في مواقعها بأفريقيا، كما هي إسهاماته كذلك في المجالات الزراعية والتعديل الجيني والاحتكار للبذور وتكنولوجيا الزراعة، لا سيما في القارة الأفريقية كذلك[١]، وترتبط هذه الاستثمارات الرأسمالية والنشاط التجاري الكبير بمؤسسته غير الربحية، التي أصبحت باستثماراتها في الأدوية والزراعة موضع نقد من خلال آثارها الواردة في كثير من الكُتب والتقارير والمقالات الغربية.

وهذا النقد مما يكشف عن صور كثيرة من التشخيص والآراء المعتبرة؛ حيث المرافعات القانونية الرسمية في الهند وأفريقيا بصورة خاصة على غيتس ومؤسسته (غير الربحية)، وهي موضوعات أخرى تتطلب الكتابة عنها بمقالات علمية تشخيصية، لا سيما حول نجاح حجم استثمارات المؤسسة وتأثيرها الكبير بتحقيق أهدافها، أو عن الإخفاق في سلامة كثير من أهدافها ومعظم منتجاتها وممارساتها.

(١) مقالة: الرأسمالية الأفريقية: تسويق الرأسمالية الخيرية والليبرالية الجديدة في الأعمال الخيرية الأفريقية (Africapitalism: The marketisation of philanthrocapitalism and neoliberalism in African entrepreneurial philanthropy)، للكاتبين: Deji Adewoye و John Mendy، على موقع (Sage Journals). وانظر: مقالة بعنوان: (الرأسمالية الخيرية في إفريقيا: مؤسسة بيل غيتس نموذجًا) للكاتب: مجدي آدم، مجلة قراءات أفريقية، العدد ٥٦، بتاريخ أبريل ٢٠٢٣م.

لمؤسسة غيتس -غير الربحية- وجهٌ آخر ربحي، وهو نشاط تجاري كبير مع شركات الأدوية الكبرى ومراكز الأبحاث الطبية والعالمية ولقاحات كوفيد ١٩، ومع موانع الحمل وتطعيمات الأطفال، وهي مثار جدل عالمي كبير في أضرارها، وكذلك إسهاماته في المجالات الزراعية والتعديل الجيني والاحتكار للبذور، لا سيما في القارة الأفريقية

المثلية الجنسية LGBTQ:

الموضوع هنا يكاد ينحصر حول دعم المثلية الجنسية (LGBTQ) الذي هو موضع فخرٍ وتباهٍ لدى غيتس ومؤسسته، وفيه إعلان مؤسسته الدعم لهذه المثلية بالمال، ودعم الأنظمة والقوانين التي تحمي هذه الفئة، وتُلبي حقوقهم واحتياجاتهم! وكما هو معلوم أن إحدى أهداف المؤسسة (الستة) المعلنة ورد فيها -حسب موقع المؤسسة- ما نصه: «قِسْم المساواة بين الجنسين Gender Equality؛ حيث يحاول تحقيق مساواة الجنسين حسب التوجه الجندري، من خلال دمج النوع الاجتماعي عبر المؤسسة في العمل في جميع أنحاء العالم»[١].

وعن هذه المساواة بين الجنسين كتبت بعض الصحف الأمريكية في عام ٢٠٢١م، وفي الخبر ورد ما يُعزِّز تحقيق هذا الهدف بالقول: «تعهدت مؤسسة بيل وميليندا غيتس بإنفاق (٢,١) مليار دولار على المساواة بين الجنسين على مدار خمس سنوات، وهو أحد أكبر التزاماتها الفردية خلال عقدين من

(١) مادة: ماذا نعمل (What We Do) على موقع gatesfoundation.org .

العمل»[١]. وهذا الدعم حول المساواة بالعمل الوظيفي أصبح -في غالب أحواله وحسب مخرجات ومفاهيم هذه المساواة الجندرية- البوابة الأساسية للمثلية الجنسية ودعمها بالمال والأعمال كما سيرد في هذا المقال.

ومن خلال مصطلح المساواة والممارسات العملية للمؤسسة يتأكَّد أنَّها ممن يحمل على عاتقها مسؤولية دعم الشذوذ الجنسي (المثلية) -كما هو معلن عن تبرعاتها كذلك بالموقع الرسمي للمؤسسة- سواءً كان هذا الدعم تحت هذا الهدف بالقِسْم المعني بالمساواة بين الجنسين أم غير هذا من البرامج الأخرى. وقد شارك بيل غيتس بالدعم والتبني لقضايا ما يُسمّى بالانتفاضة المتعلقة بمجتمع «المثليات والمثليين وثنائيي الميول والمتحولين جنسيًا LGBTQ».

وحول التباهي والإعلان والممارسات عن دعم هذه المثلية الجنسية، ورد في صفحات موقع المؤسسة ما هو أكثر من أخبار الدعم والتبرع، حينما خصَّصت المؤسسة برنامجًا لجمع التبرعات من الآخرين خدمةً لهذا التوجه، وذلك بصفحة محددةٍ معنِيَّة بالمِنَح الملتزم بها في موقع مؤسسته بـعنوان: «تمويل قضايا المثليات والمثليين Funders for Lesbian and Gay Issues, Inc»[٢].

(١) مقالة: تلتزم مؤسسة جيتس بأكثر من ملياري دولار لجهود المساواة بين الجنسين (Gates Foundation commits more than ٢$ billion to gender equality efforts)، للكاتب Emma Goldberg، على موقع صحيفة نيويورك تايمز www.nytimes.com، بتاريخ ٣٠ يونيو ٢٠٢١م. ومقالة: مؤسسة بيل وميليندا جيتس تلتزم بمبلغ ٢ مليار دولار لتحقيق المساواة بين الجنسين (Bill & Melinda Gates Foundation commits ٢$ billion for gender equality)، للكاتب: Jordan Valinsky، على موقع سي إن إن الأعمال edition.cnn.com.

(٢) مادة: تمويل قضايا المثليين والمثليات (Funders for Lesbian and Gay Issues, Inc)، على موقع: gatesfoundation.org، عام ٢٠١٧م.

تحمل مؤسسة غيتس على عاتقها مسؤولية دعم الشذوذ الجنسي (المثلية) من خلال مصطلح المساواة، ويتضح هذا عبر الممارسات العملية للمؤسسة، سواءً كان هذا الدعم تحت هذا الهدف بالقِسْم المعني بالمساواة بين الجنسين أم غير هذا من البرامج الأخرى. وقد شارك بيل غيتس بالدعم والتبني لقضايا ما يُسمى الانتفاضة المتعلقة بمجتمع (المثليات والمثليين وثنائيي الميول والمتحولين جنسيًا LGBTQ)

صور معلنة من الإسهام والدعم:

تنوعت المصادر والأخبار وأنواع هذا الدعم للمثلية الجنسية بعشرات المقالات والأخبار عن بيل غيتس ومؤسسته غير الربحية، ومما ورد عن إسهامات هذه المؤسسة وشراكتها مع آخرين: دعم كثير من البرامج المتعلقة بمجتمع الشذوذ الجنسي المسمى «LGBTQ»، بل وبصورةٍ مبكرة قبل ما يُسمى الانتفاضات الرسمية الأمريكية بحوالي عشر سنوات، لا سيما على مستوى الدعم المالي، وحسب الخبر: فقد تبرع كل من الرئيس التنفيذي لشركة مايكروسوفت Microsoft ستيفن بالمر Steven Ballmer، والمؤسس المشارك للشركة بيل غيتس بمبلغ (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف دولار للحملة التي تدعم قانون زواج المثليين الجديد في ولاية واشنطن، والذي كان سيُجْرَى من أجله تصويتٌ في استفتاء عن القانون في نوفمبر ٢٠١٢م[١]؛ وحسب صحيفة سياتل تايمز The Seattle Times بسياتل

(١) مقالة: بيل غيتس وستيف بالمر يتبرعان بمبلغ (١٠٠) ألف دولار لحملة دعم زواج المثليين (Bill Gates, Steve Ballmer Each Donate $100K To Campaign Supporting Gay Marriage)، على موقع: cbsnews.com ، بتاريخ ٢ يوليو ٢٠١٢م.

واشنطن تم عدُّ الأصوات، وأدلى حوالي (٥٣,٧٪) من ناخبي ولاية واشنطن بأصواتهم بالإيجاب، قائلين: «لماذا: نعم، نعم، أؤيد»، أدعم زواج المثليين، وأصبحت ولاية واشنطن ومين وماريلاند في انتخابات ٦ نوفمبر ٢٠١٢م أول ولايات أمريكية يوافق فيها الناخبون على زواج المثليين في صندوق الاقتراع، وأصبح زواج المثليين قانونيًا في أماكن أخرى كذلك، ومعظمها من قبل المحاكم[١]. ويعني ذلك أنَّ هذا التبرع أثَّر بصورةٍ واضحة على نتيجة الاستفتاء؛ إذ إنَّ الأغلبية من الناخبين دعموا زواج المثليين، الأمر الذي يشير إلى نفوذ بيل غيتس واهتمامه في دعم هذه الظاهرة الغربية المتنامية (المثلية الجنسية)، ثم هل هذه النسبة المئوية العالية تُعدُّ مؤشرًا لقياس تطبيع المثلية في المجتمعات الغربية كذلك؟

وأسهم بيل وميليندا غيتس كذلك بمبلغ (٥٠٠,٠٠٠) خمسمائة ألف دولار في الجهود المبذولة للحفاظ على قانون يوسع حقوق الزواج من نفس الجنس في ولاية واشنطن كذلك؛ حيث قال متحدث باسم الأسرة: «قدَّم بيل وميليندا غيتس مساهمة ثانية في حملة الاستفتاء (٧٤) لأنهما يدعمان المساواة في الزواج، ويعتقدان أن القانون جيد لولاية واشنطن». وفي نهاية الحملة تمت الموافقة على القانون[٢]. وبناءً على المعلومات الواردة أعلاه، قامت المؤسسة وبيل غيتس بتمويل بمبلغ إجمالي قدره (٦٠٠,٠٠٠) ستمائة ألف دولار للزواج من نفس الجنس بحلول أكتوبر ٢٠١٢م، ليكون غيتس بمؤسسته من أقوى الداعمين على مستوى القوانين والتشريعات كذلك.

(١) مقالة: عندما قال الناخبون في غرب أستراليا: «أفعل» لتشريع زواج المثليين (When WA voters said 'I do' to legalizing same-sex marriage)، للكاتب: Kate Riley، على موقع (The Seattle Times)، بتاريخ ٩ ديسمبر ٢٠٢٢م.

(٢) مقالة: يتبرع غيتس بمبلغ ٥٠٠ ألف دولار لجهود الزواج في واشنطن (Gates donates $500,000 to Wash. marriage effort)، للكاتب: Reese, P، على موقع washingtonblade.com، بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠١٢م.

وفي الموقع الرسمي لمؤسسة بيل وميليندا غيتس، وفي إطار المِنَح المُلتزم بها من قِبل المؤسسة حسب صفحة جمع التبرعات لهؤلاء المثليين المعروفين باسم LGBTQ كان هناك قيام بحملة تبرعات، والغرض من هذه الحملة جمع التبرعات للمثليين -كما سبق- وهي الحملة التي دُشِّنت عام ٢٠١٧م؛ وقد بلغت المِنح المُلتزم بها مبلغًا قدره (٢٥,٠٠٠) دولار لمدة شهر واحد فقط في نيويورك بالولايات المتحدة[١].

ويعمل مموّلو قضايا المثليين على زيادة حجم وتأثير الموارد الخيرية! التي تهدف إلى تعزيز رفاهية مجتمعات المثليات والمثليين، وتعزيز المساواة والنهوض بالعدالة العرقية والاقتصادية والجنسانية؛ وحول هذا ورد في تقرير «التتبع لعام ٢٠١٨م لقضايا المثليين والمتحولين جنسيًا ٢٠١٨ Tracking Report: LGBTQ» المنشور في ٣٠ مارس ٢٠٢٠م، بلغ إجمالي التمويل المؤسسي لقضايا المثليين والمتحولين جنسيًا من قِبل المؤسسات الأمريكية المانحة (٢٠٩,٢) مليون دولار في عام ٢٠١٨م، وهو رقم قياسي جديد. ويمثل هذا الإجمالي زيادة ملحوظة قدرها (٢٢,٤) مليون دولار، أي زيادة بنسبة (١٣٪) من مبلغ (١٨٥,٨) مليون دولار الذي أُعلن عنه في تقرير عام ٢٠١٧م، حيث يمثل عام ٢٠١٨م المرة الثانية في تاريخ العمل الخيري التي يتجاوز فيها تمويل قضايا المثليات والمثليين حاجز الـ (٢٠٠) مليون دولار... وزادت ثلاث عشرة مؤسسة غير ربحية من تبرعاتها بمقدار مليون دولار أو أكثر في عام ٢٠١٨م، وهي كلٌّ من: (الجهات المانحة المجهولة، ومؤسسة

(١) مادة: الممولين لقضايا المثليات والمثليين (Funders for Lesbian and Gay Issues, Inc)، على موقع gatesfoundation.org، عام ٢٠١٧م.

بيل وميليندا غيتس، ومؤسسة كالاموس بنيويورك THE CALAMUS FOUNDATION، وغيرها من المؤسسات)[١].

وفي قائمة أفضل (١٠) مؤسسات عالمية خاصة تُقدِّم المنح لمثليي الجنس في الولايات المتحدة، أُدرجت مؤسسة بيل وميليندا غيتس من ضمنها؛ حيث احتلت (المرتبة الثامنة) بتمويل قدره (١,٤٦٨,٣٤١) مليون وأربعمائة وثمانية وستون ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون دولارًا في مدينة سياتل بولاية واشنطن. ويعني ذلك أن مؤسسة بيل وميليندا غيتس منحت هذا المبلغ عام ٢٠١٨م، وذلك على ثلاث دفعات كما أوضح ذلك تقرير التتبع سابق الذكر[٢].

وبحلول عام ٢٠١٩م، قامت مؤسسة بيل غيتس بتمويل بمبلغ (١٦,٨) مليون دولار في إطار مبادرة «النهوض بحقوق الإنسان ADVANCING HUMAN RIGHTS» لدعم المثليين، حيث أُدرجت مؤسسة بيل وميليندا غيتس في قائمة كبار المموِّلين لتعزيز حقوق الإنسان! وتستخدم المؤسسة منظمات مبتكرة لدعم قضيتهم، ومبادرة «النهوض بحقوق الإنسان» هي مشروع بحثي لتوثيق مشهد التمويل التأسيسي لحقوق الإنسان وتتبع التغييرات في نطاقها وأولوياتها، وتركِّز مِنَح حقوق الإنسان على الشباب والأطفال والأشخاص ذوي الإعاقة بنسبة (٣٪) من المنح البحثية إلى (٤٪) من المنح، بالإضافة إلى دعم المثلية LGBTQI بنسبة (٥٪) من المنح البحثية[٣]. وبهذه النسب يتضح أن دعم المثلية هو الأعلى لدى هذه المبادرة المعنية بحقوق الإنسان، وغيتس من أبرزهم.

(١) تقرير التتبع لعام ٢٠١٨م لقضايا المثليين والمتحولين جنسيًا (Tracking Report 2018: LGBTQ)، للكاتبين: Andrew Wallace & Lyle Matthew Kan، على موقع lgbtfunders.org، الصفحات ٢، ٨، بتاريخ ٣٠ مارس ٢٠٢٠م.

(٢) المصدر السابق، الصفحات ٣٨، ٤٨.

(٣) تقرير: الحقوق الجنسية والإنجابية ٢٠١٩م (SEXUAL AND REPRODUCTIVE RIGHTS, ٢٠١٩)، على موقع: humanrightsfunding.org.

وفي تقرير «التتبع لقضايا المثليين لعام ٢٠٢١م Tracking Report: LGBTQ»، المنشور في ٢٦ يونيو ٢٠٢٣م بلغ إجمالي التمويل المؤسسي لقضايا المثليين من قِبل المؤسسات الأمريكية (٢٥١) مليون دولار في عام ٢٠٢١م، ولم يرد ذكر ما منحته مؤسسة بيل غيتس الخيرية للمثليين[١] بالرغم من ذكرها في تقرير التتبع لعام ٢٠١٨م -كما سبق-. في حين ورد في الموقع الرسمي لمؤسسة بيل وميليندا غيتس الخيرية ما يؤكد علنية الدعم، حسب آخر تحديث منشور بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٢٣م لقاعدة بيانات المِنَح الملتزِمة بها المؤسسة لدعم قضايا المثليات والمثليين، الذي كان (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف دولار في أغسطس ٢٠٢١م لمدة شهر واحد فقط في نيويورك بالولايات المتحدة[٢].

> **أدرجت مؤسسة بيل وميليندا غيتس في قائمة أفضل (١٠) مؤسسات عالمية خاصة تُقدِّم المنح لمثليي الجنس في الولايات المتحدة؛ حيث احتلت (المرتبة الثامنة) بتمويل يقترب من (١,٥) مليون دولارمائةفي مدينة سياتل بولاية واشنطن**

دعم وتنوع ومزايا:

يمكن القول بأن المؤسسة مُموِّلٌ وداعمٌ مُعلَن لمجتمع المثليين، حسب البيانات المتاحة، ما عدا عام ٢٠١٩م و٢٠٢٠م؛ حيث المعلومات تُعدُّ شحيحة، ويمكن أن هذا كان بسبب جائحة كوفيد-١٩ العالمية التي شَغَلت الرأي العام العالمي؛ حيث العالم

(١) تقرير التتبع لعام ٢٠٢١م لقضايا المثليين والمتحولين جنسيًا (Tracking Report: ٢٠٢١ LGBTQ)، بتاريخ ٢٦ يونيو ٢٠٢٣م، الصفحة ٢، على موقعlgbtfunders.org.

(٢) مادة: المنح الملتزم بها (Committed grants)، على موقع gatesfoundation.org، بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٢٣م.

بأسره نقل تركيزه إلى التعامل مع الوباء، وعلى الرغم من أن منظمات المجتمع المدني لم تُقدم خدماتها ودعمها للشعوب، إلا أن بعض المنظمات المهتمة بالمثلية حثُّوا لإدماج مجتمع المثليين أثناء الوباء. مثل صندوق المساواة الجنوبي Southern Equality Fund، الذين قدموا منحًا لفترة كوفيد-١٩ والتي تتكون من ثلاثة أنواع من المساعدات:

١. منح المساعدة الطارئة للأفراد والعائلات (منح بقيمة ٢٥٠ دولارًا لتوفير الإغاثة المالية الفورية للمثليين الجنوبيين).

٢. منح استجابة المجتمع (مِنح ما يصل إلى (٥٠٠) دولار لتمويل المشاريع المخصصة لتلبية احتياجات LGBTQ الجنوبيين استجابةً لكوفيد-١٩).

٣. منح الخط الأمامي لمقدمي الخدمات المباشرة (المنح الموجهة إلى منظمات الخدمة المباشرة)[١].

وبالرغم من إخفاء هوية بعض المتبرعين أحيانًا ممن ربما لديهم الخوف من مقاطعة منتجاتهم، لكن كثيرًا من المؤسسات أو الأفراد الذين يدعمون هذه الظاهرة الشنيعة أو يمولونها لديهم رغبة في إعلان أنفسهم وشركاتهم -كما سيأتي- وكما هو واقع غيتس ومؤسسته، حيث الأخبار والتقارير وأرقام التبرعات المعلنة، وقد وردت بعض الأخبار عن هذا الدعم والتبرع في مقالٍ نُشر في موقع (Forbes) يونيو ٢٠٢٣م بعنوان «هل تدعم استثماراتك المساواة بين المثليين؟ Do Your Investments Support LGBTQ+ Equality?»، وفي المقال ظهرت مجموعة من الشركات تدعم المساواة بين المثليين، ويستثمر فيها رجال الأعمال، ومنهم بيل غيتس؛ الأمر الذي يمكن تفسيره بأن اختياراتهم هذه تعكس قِيَمَهم الظاهرة، بل وربما كثيرًا من قِيَم الإحسان في الغرب لدى هذا القطاع غير الربحي!

(١) مادة: صندوق المساواة الجنوبي (Southern Equality Fund)، على موقع southernequality.org، عام ٢٠٢٣م.

يقول جاي ليبمان Jay Lipman: «إن المؤشر يُحدد الشركات التي تُنفِّذ سياسات مُصمَّمة خصيصًا لتلبية احتياجات الموظفين المثليين؛ ويشمل ذلك تحديد التوجه الجنسي والهوية الجنسية بوضوح في سياسة عدم التمييز الخاصة بهم، ومنح مزايا للشركاء المحليين، وتقديم مزايا شاملة للمتحولين جنسيًا، وعرض الكفاءة التنظيمية للمثليين (LGBT) وتنفيذ معايير عدم التمييز»[١].

ومؤسسة بيل وميليندا غيتس لا تُخفي دعمها وتبرعاتها، فلدى غيتس بمؤسسته فعاليات لجمع التبرعات في موقعهم الرسمي على الإنترنت -كما سبق-. وعلى الرغم من أن المبلغ الإجمالي لمنح الأموال التي قدمتها المؤسسة لا يمكن أن يتضح حجمه ببساطة؛ إلا أن المؤسسة في بعض التمويلات يمكن أن تكون واحدة من هؤلاء المولين المجهولين كذلك[٢]، إضافة إلى التمويلات المعلنة.

وعن دعم المانحين حسب موقع ياهو فايننس Yahoo! Finance للأخبار المالية والبيانات، استثمرت مؤسسة بيل غيتس في شركة وول مارت Walmart والتي أُدرجت في مجموعة من الشركات الصديقة البارزة التي تدعم المساواة بين المثليين. وبلغت حصة أسهم مؤسسة بيل وميليندا غيتس غير الربحية في شركة وول مارت (٤٤٥) مليون دولار؛ وذلك في الربع الأول من عام ٢٠٢٣م[٣].

(١) مقالة: هل تدعم استثماراتك LGBTQ إضافة إلى المساواة؟ (Do Your Investments Support LGBTQ+ Equality?)، للكاتب: Napoletano, E.، على موقع: forbes.com، بتاريخ ٢٢ يونيو ٢٠٢٣م.

(٢) مادة: المنح الملتزم بها (Committed grants)، على موقع gatesfoundation.org، بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٢٣م.

(٣) مقالة: أحدث محفظة لبيل جيتس: أفضل ١٥ اختيارًا للأسهم (Bill Gates' Most Recent Portfolio: Top 15 Stock Picks)، للكاتب: Cheema, R.، على موقع finance.yahoo.com، بتاريخ ٢٣ مايو ٢٠٢٣م.

بالرغم من إخفاء هوية بعض المتبرعين ممن قد يكون لديهم خوف من مقاطعة منتجاتهم، كثيرٌ من المؤسسات أو الأفراد الذين يدعمون هذه الظاهرة الشنيعة أو يمولونها لديهم رغبة في إعلان أنفسهم وشركاتهم كما هو واقع غيتس ومؤسسته، حيث الأخبار والتقارير وأرقام التبرعات المعلنة

تطبيع عالمي لأيديولوجيا الشذوذ:

حول دعم المثلية وتطبيعها عالميًا ورد في «تقرير الموارد العالمية Global Resources Report» لعامي (٢٠١٩-٢٠٢٠م) عن الدعم الحكومي والخيري لمجتمعات المثليين عالميًا المنشور في ٨ يونيو ٢٠٢٢م، وفيه أن مؤسسة بيل وميليندا غيتس منحت مبلغًا قدره (٨٤٦,٣٥٥) ثمانمائة وستة وأربعون ألفًا، وثلاثمائة وخمسة وخمسون دولارًا، ضمن قوائم (٢١٣) مُموِّلاً. وحسب التقرير بلغ إجمالي التمويل (العالمي) لقضايا المثليات والمثليينLGBTI (٥٧٦) مليون دولار في عامي ٢٠١٩ و٢٠٢٠م، بزيادة (٣٪) عن (٥٦٠) مليون دولار في عامي ٢٠١٧-٢٠١٨م، أي زيادة بنحو (١٦) مليون دولار أمريكي، والجدير بالذكر أن هذا التقرير وثَّق أيضًا الزيادة بنسبة (٣٨)٪ في عدد المستفيدين من المنح عن التقرير السابق[١].

ورد في موقعGPP «مشروع العمل الخيري العالمي Global Philanthropy Project»، أن هذا المشروع يُعدُّ تعاونًا بين الممولين والمستشارين الخيريين الذين يعملون على توسيع الدعم الخيري (العالمي) لتعزيز حقوق الإنسان للمثليات والمثليين

(١) تقرير الموارد العالمية ٢٠١٩ -٢٠٢٠م (Global Resources Report 2019-2020)، على موقع search.issuelab.org، بتاريخ ٨ يونيو ٢٠٢٢م.

وثنائيي الميول والمتحولين جنسيًا العالمي (LGBTI) في جنوب وشرق العالم، وهو تعاون يهدُف إلى زيادة المبلغ والتأثير على نوع التمويل المؤسسي الخاص والعام المخصص لقضايا المثليين والمثليات[١]. ويعمل مشروع العمل الخيري العالمي على مشاركة بيانات التمويل العالمي الذي يخص (مجتمع المثليين) لعشر سنوات في يونيو ٢٠٢٤م. ولذلك فهم يتتبعون بيانات التمويل العالمي الذي يُركز على مجتمعات المثليين، خاصةً عامي ٢٠٢١م و٢٠٢٢م[٢].

فهل يتأكد بهذه المصادر المتعددة والمتنوعة انحراف مؤسسة غيتس الرأسمالية غير الربحية عن مفاهيم الخيرية والعمل الإنساني بصورةٍ واضحة؟ وهل هذا الواقع لهذه المؤسسة كأنموذج وحالة دراسية مما يكشف عن حقيقة هدف المساواة المعلنة والممارسات في دعم المثلية؟ ثم هل هذه الرأسمالية الخيرية التي يُسميها بيل غيتس (الرأسمالية الخلَّاقة) هي الأنموذج المثالي للعطاء في عصر التحولات والنظام العالمي الجديد؟.

تحول الشذوذ (المثلية) في الغرب من انحراف وشهوات فردية ومجتمعية وحرية جنسية مطلقة إلى عقيدة وأيديولوجيا فكرية وسياسية، دخلت فيها المنظمات الدولية تشريعًا وحماية، كما أسهمت الشركات العملاقة بالدعم المعنوي والمادي، ومن يطلع على قوائم هذه الشركات يُدرك مدى العمل الكبير لنصرة هذه الأيديولوجيا

(١) مادة: من نحن؟ (Who We Are)، على موقع مشروع العمل الخيري العالمي GPP، globalphilanthropyproject.org، سبتمبر ٢٠٢٣م.

(٢) تقرير: مشاركة بيانات تقرير الموارد العالمية ٢٠٢١ - ٢٠٢٢م (2021-22 Global Resources Report Data Submission)، على موقع مشروع العمل الخيري العالمي GPP، globalphilanthropyproject.org، سبتمبر ٢٠٢٣م.

أيديولوجيا المثلية وانتهاك الحريات:

تحول الشذوذ (المثلية) في الغرب من انحراف وشهوات فردية ومجتمعية وحرية جنسية مطلقة إلى عقيدة وأيديولوجيا فكرية وسياسية، دخلت فيها المنظمات الدولية تشريعًا وحماية، كما أسهمت الشركات العملاقة بالدعم المعنوي والمادي، ومن يطلع على قوائم هذه الشركات يُدرك مدى العمل الكبير لنصرة هذه الأيديولوجيا، ومن أبرز الشركات وأشهرها: ماكدونالدز McDonald، وبرغر كنغ Burger king، وكنتاكي KFC، وكوكاكولا Coca Cola، وستاربكس Starbucks، ونسكافيه Nescafe، وزارا Zara، وديور Dior، وشي إن SHEIN، وأديداس Adidas، ونايك Nike، وإيكيا IKEA، وإل جي LG، وسامسونج Samsung، وديزني Disney بأفلامها الكرتونية وغيرها، وغيرها كثير[1]، وكذلك أصبح الدعم القوي من عالم الأندية الرياضية في الغرب كما حدث من الدوري الفرنسي والدوري الإنجليزي اللذين غيروا شعارهم إلى شعار الشواذ، إضافةً إلى أندية أخرى متعددة[2]. إضافةً إلى إدخال شعار وعَلَم المثلية إلى كثير من الصناعات، خاصةً ما يتعلق بملابس واحتياجات الأطفال والشباب، وتتأكد عقيدة وأيديولوجيا المثلية في جهودهم ونضالهم في كل الميادين حتى وُجدت الموالاة لأنصار المثلية، والمعاداة للرافضين لها، كما حاولوا في المونديال الدولي للرياضة في قطر لعام ٢٠٢٢م بالرغم من عدم قبولهم.

(١) ينظر عن هذه الشركات وغيرها، مادة: قائمة الشركات التي تدعم المثليين، على موقع المثالي almthali.com، بتاريخ ٢٧ يونيو ٢٠٢٢م.، ومقالة: مسيرات ولكن لا منشورات عامة، ما هي العلامات التجارية التي تدعم «الفخر» في أعقاب رد الفعل العنيف؟ (Parades but no public posts: which brands are supporting)، للكاتب Matthew Cantor، على موقع صحيفة الغارديان، theguardian.com، بتاريخ ٧ يونيو ٢٠٢٣م.

(٢) ينظر عن هذه الأندية، مادة: قائمة الشركات التي تدعم المثليين، على موقع المثالي almthali.com، بتاريخ ٢٧ يونيو ٢٠٢٢م.

ووصلت قوة هذه الأيديولوجيا إلى تعزيز وسائل الحماية باعتماد «المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان OHCHR» إصدار قوانين وإجراءات ضد التمييز بحق «الشواذ» أو الإساءة إليهم أو التبرؤ منهم! وذلك في ١٧ يونيو من عام ٢٠١١م لمتابعة تنفيذ إعلان وبرنامج عمل «فيينا»، وهو القرار الموصوف بأنه قرار تاريخي؛ حيث كان التصويت بالأغلبية[١]، ومن هذه القوانين الصادرة الإلزامية لدول العالم: «تلتزم المفوضية السامية لحقوق الإنسان بالعمل مع الدول والمؤسسات الوطنية لحقوق الإنسان والمجتمع المدني في جميع أنحاء العالم، للمساعدة في إبطال القوانين التي تُجرِّم المثليات والمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية وحاملي صفات الجنسين. كما تعمل المفوضية السامية على حماية الأشخاص من العنف والتمييز على أساس ميلهم الجنسي وهويتهم الجنسانية وخصائصهم الجنسية»[٢]، وتبع هذا إصدار قوانين أخرى، وأفلام مُوجَّهة، وحملات وحفلات دعائية تحت وسم (#لست_وحدك)، وتقارير وتضامن تستهدف بصورةٍ خاصة دول العالم العربي، وقد تم من خلال هذه الحملات جمع شهادات ٣٤ ناشطًا من المثليين عبر ١٦ بلدًا عربيًا، ونشرها لتسويق هذه الأيديولوجيا في سلسلة تسجيلات وفيديوهات مُصوَّرة على شبكة الإنترنت[٣]. وهو ما يؤكد

(١) مقالة: صدور قرار الأمم المتحدة بشأن حماية حقوق المثليين ووصفه بأنه «لحظة تاريخية» (U.N. Gay Rights Protection Resolution Passes, Hailed As ‹Historic Moment›)، للكاتب: Frank Jordans، على موقع web.archive.org، بتاريخ١٧ يونيو ٢٠١١م.

(٢) ينظر مادة بعنوان: المفوضية السامية لحقوق الإنسان وحقوق الإنسان للمثليات والمثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية وحاملي صفات الجنسين، على موقع المفوضية السامية للأمم المتحدة لحقوق الإنسان (OHCHR) باللغة العربية.

(٣) ينظر تقرير بعنوان: حملة «لست وحدك» تدعم حقوق المثليين وثنائيي الميول والمتحولين جنسيًا العرب، على موقع فرانس ٢٤، com.france٢٤، باللغة العربية، بتاريخ ١٨ أبريل ٢٠١٨م.

الدعوة والتسويق العالمي لهذه الأيديولوجيا، ومرةً أخرى، هل يُعد تصويت المفوضية السامية للأمم المتحدة مقياسًا لأغلبية الشعوب والدول الغربية في العمل بهذه الظاهرة؟ وهل على بقية دول العالم أن يتقبلوا هذه الحضارية للغرب! حينما أصبح الغرب صاحب الكلمة العليا في محافله الدولية والأممية؟!

وما سبق يعكس شيئًا من محاولات تصدير ثقافة الغالب بصورةٍ قسرية تنتهك الحريات العالمية، وتصادر التعدديات الثقافية للأمم وخصوصياتها، سواءً في فرض الشذوذ ذاته على العالم من خلال المنظمات الأممية وممارسة الضغوط، أو من خلال دعم مؤسساته المعنية بالعطاء وتدخلاتها! وماذا يمكن أن تُوصف بعد هذا شركات الغرب الرأسمالية والرأسمالية الخيرية؟ التي يُسميها غيتس كأبرز الداعمين (الرأسمالية الخلَّاقة)!

وفي الختام أقول معلقًا:

إن هذا التوجه الأيديولوجي أو الانحراف في العمل الإنساني -لما يُفترض فيه أنه عمل خيري إنساني نظيف- أصبح بهذا الواقع صادمًا لبعض المهتمين بالشأن الخيري، لا سيما حول تسخير الأموال غير الربحية والمسماة: «خيرية» لخدمة أجندات بيل غيتس ومؤسسته -أنموذجًا-، وهي الأجندة التي تتنافى مع العدالة والقِيَم، والأخلاق والفِطَر الإنسانية السوية! والحقيقة التي قد تُزيل الاستغراب أن القطاع غير الربحي خاصةً المُصنَّف بتوجهه العلماني وهو الأغلب والأقوى في الغرب، يفتقد لثوابت المرجعية الدينية السماوية -أيًا كانت ديانته- حينما استبدل الغرب ديانته النصرانية واليهودية بالحداثة والتنوير! ولهذا لا يُستغرب منه أن يَضِلَّ عن الطريق الصحيح، وأن يكون القطاع بذويه ومنسوبيه حقًا من المفسدين الذين يظنون أنهم مصلحون.

وتتأكد طبيعة هذا الانحراف الكبير عند القراءة عن أسس ومبادئ نشأة هذا القطاع، حينما يعلم القارئ دوافع وأهداف نشأة القطاع غير الربحي في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث إنه قطاع وُلد من رحم الرأسمالية الاقتصادية ولمعالجة آثارها، وليس من باب دوافع البر والإحسان، فهو قطاع جاء رد فعل لاحتجاجات العمال ونقاباتهم، ولمعالجة آثار تدني رواتبهم وانتهاك حقوقهم عند بداية الثورة الصناعية بأمريكا، وزمن نهوض الرأسمالية آنذاك فترة (كارنيجي ١٩١١م، وروكفلر ١٩١٣م، وفورد ١٩٣٦م) حين نشأة هذا القطاع، وقد عبَّر عن حقيقة هذا القطاع غير الربحي الغربي بدوافعه الحقيقية وأهدافه، ومدخلاته ومخرجاته الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية باراك أوباما بقوله: «التصدي لمشكلات الفقر في العالم والدول الفاشلة أمر حيوي لمصالح أمتنا (الأمريكية)، وليس مسألة إحسان وصدقة»[(١)].

وهذا الواقع المريض للقطاع غير الربحي في الغرب سواءً برأسماليته الوحشية، أم بأهدافه أو ببعض ممارساته غير الأخلاقية، ربما يكشف عن أهم الإجابات لبعض التساؤلات: هل هذا القطاع بهذه الأهداف والممارسات مما يؤكد على جوانب الاختلاف الجوهرية في المدخلات والمخرجات بين فلسفة هذا العطاء الغربي، وبين العطاء الخيري الإسلامي؟ وهل هذه العقيدة الأيديولوجية الغربية الحديثة للشذوذ الجنسي مرتبطة بتقليل سكان المعمورة المتداول عالميًا وإعلاميًا؟ لتحقيق أهداف (المليار الذهبي) من السكان، بدلاً من ثمانية مليارات من بني الإنسان! وهل حقًا هذه الأيديولوجيا والتحولات نتيجة طبيعية للتخلي عن ضوابط الدين (النصرانية واليهودية) واستبدال دينهم بالحداثة والتنوير؟ وهل لهذا النفوذ الكبير لرأسمالية

(١) ينظر: جرأة الأمل - أفكار عن استعادة الحلم الأمريكي، لباراك أوباما، ترجمة معين الإمام، ص (٣١).

غيتس ورفقائه في الرأسمالية الخيرية علاقة بمشروع (حكومات الشركات) عابرة الحدود، وتحقيق النظام العالمي الجديد بمتغيراته المعلنة والخفية؟

أسئلة كبيرة وكثيرة تطرحها الأحداث المتسارعة لهذه الأيديولوجيا وما يرتبط بها، تتطلب البحوث والدراسات والكتب والمؤلفات للوعي والإدراك والمقاومة المشتركة عالميًا. وأخيرًا هل رَفْعُ دول الغرب شعار (الإنسانية) والعمل الإنساني -في ظل ما يتصادم مع قيم الإنسانية ومبادئ الأخلاق- يُعدُّ حقيقة؟ أم أن هذا من التضليل المبرمج؟ أعتقد أن اللجوء إلى الله خير عاصم، وقد قال الله العزيز الحكيم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦][1]!

إنَّ هذا الانحراف في العمل الإنساني أصبح بهذا الواقع صادمًا للمهتمين بالشأن الخيري، لا سيما حول تسخير الأموال غير الربحية لخدمة أجندات تتنافى مع العدالة والقِيَم، والأخلاق والفِطَر الإنسانية السوية! وتتأكَّد طبيعة هذا الانحراف عند معرفة أسس ومبادئ نشأة هذا القطاع الذي وُلد من رحم الرأسمالية الاقتصادية ولمعالجة آثارها، وليس بدوافع البر والإحسان

(١) ينظر: مقال بعنوان: (حقيقة المنظمات الدولية - قراءة في كتاب القوة من النوع الثالث)، لمحمد بن عبد الله السلومي، مجلة البيان، العدد ٤٣٩، بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠٢٣م.

الصراع بين تبكير الزواج وتأجيله

أ. هدى عبد الرحمن النمر
كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

ينشر الفكر النسوي خطابًا يزعم فيه أن الزواج المبكر تقييد لحرية المرأة ومنع من بناء نفسها علميًا ومهنيًا، وأن عليها أن تحقِّق ذاتَها وتأخذ حظَّها من الحياة قبل هذا التقييد، وينتشر هذا الخطاب في مختلف الأوساط الاجتماعية والإعلامية والفكرية. وفي هذا المقال نقاشٌ علمي لصحة هذا الخطاب، مدعمًا بالدراسات والحقائق العلمية.

انتشرت في أوساط النساء رؤيةٌ مفادُها أن للمرأة حقًّا مفروضًا في «فترة عزوبية» تتيح لها تحصيل «الثلاثية النسوية» قبل التقوقع في قفص الزواج: الشهادة والكارير (المسار المهني) والنشور (السعي والانتشار) في الأرض (تحت شعار «رؤية الدنيا أو العالم»). ونظرًا إلى أن هذه الثلاثة لا تكتمل للفرد عامة –رجلاً أو امرأة– وتبلغ نضجها إلا بحلول الثلاثينيات في «أسرع» تقدير، غلب على التقدير النسوي وحتى العرفي السائد أن الزواج فيما بين سن البلوغ حتى أوائل العشرينيات خطر، وفيما بعد حتى بداية الثلاثينيات معيب، من حيث علو احتمال تعطيله للمرأة خاصة عن تحقيق ذاتها بتملك تلك الثلاثية!

وفيما يأتي تفنيد لأوهام ومحاذير كامنة في هذه الرؤية:

أثر الخطاب النسوي في ترويج وهم «جمع المحاسن» بين النساء:

على مدى عقود من الخطاب النسوي المبثوث في مختلف الأوساط المعرفية وعبر مختلف الوسائط، انتشر وسط النساء وهمان أساسيّان تزهد بسببهما النساء في مجرد التفكير في الزواج «مبكّرًا»، وهما: «ما يزال أمامي متسع من الوقت I still have time»، «يمكنني أن أكون ما أشاء I can be anything». ومع أن التصدّي لهذين الوهمين بدأ منذ أمد وتنامى في الغرب، إلا أن فتياتنا ما يزلن أسيرات له بسبب ثقافة سطحية وأفهام مغلوطة واغترار بفورة الشباب، فصارت

البنت تتخوّف مما سيفوتها من الدنيا إذا تزوّجت مبكّرًا، ولا يخطر لها أدنى هاجس بشأن ما يفوتها من طاقة الزوجية والإنجاب إذا انخرطت في الدنيا مبكّرًا!

وبعد مطالعة عدد من المواد[1] في مسألة «الأضرار الواقعية» المترتبة على الزواج في سنّ متأخرة (بدءًا من ٣٠ فما فوق) فالإجماع متحقق على ملاحظتين: الأولى أن للأمومة والإنجاب «عمرًا بيولوجيًّا» ثابتًا (وهذه بدهية متعلقة بطبيعة خِلقة المـرأة وغاية خلقها)، ولن يتطوّع بانسيابية ليوافق تقويمها الشخصي ريثما تحقق ذاتًا أو تفرغ من بناء مسيرة. ثم الحقيقة الثانية والمترتبة على ذلك هي أن النسوية التي أقنعت المرأة بأنها يمكن أن تكون أي شيء تريد أن تكونه (وقد ثبت بُطلان هذا) أخفت عنها أنها لا يمكن أن تكون «كل» شيء، وأنها في سعيها للتألق في شيء تضحي في سبيله بأشياء.

أظهرت الدراسات بشكل عام أنه كلما كان الرجل أكثر نجاحًا زاد احتمال عثوره على زوجة وصيرورته أبًا، وهذا على العكس بالنسبة للنساء، خاصة المتفوّقات مهنيًّا؛ إذ تقل فرص عثورهن على الشريك المناسب أو رغبة الرجال «العاديين» فيهن وبالتالي تقل فرص صيرورتهن أمهات

(١) مقالة ماذا يحدث عندما تختار المرأة الهيمنة المهنية على علاقاتها (What Happens When a Woman Chooses Career Dominance Over Her Relationship) للكاتبة Jessica Grose، صحيفة (The New York Times) نشرت في ١٤ أكتوبر ٢٠٢٣م. ومقطع مرئي بعنوان: الكثير من الوقت: فهم الجداول الزمنية للمرأة (Plenty Of Time: Understanding Women's Timelines)، نشر في ٢٥ سبتمبر ٢٠٢٣م على قناة يوتيوب: (PsycHacks)، صاحب القناة: (Dr. Orion Taraban). ومقطع مرئي بعنوان: الحياة المهنية مقابل الأمومة: هل يتم الكذب على النساء؟ (Career vs. Motherhood: Are Women Being Lied to?)، نشر في ١٧ مارس ٢٠٢٠م، على قناة يوتيوب: (Big Think)، صاحب القناة: (Jordan Peterson).

وفيما يلي مقتطفات اخترت عرضها من إحدى الدراسات، التي وإن كان تاريخها قديمًا (أبريل ٢٠٠٢)، إلا أن اللافت أنه منذ وقت نشرها إلى اليوم تظل نفس المبادئ قائمة يزداد تعضيدها بالشواهد الحديثة، على عكس المتوقع. الدراسة نشرتها دوريّة هارفارد للبيزنيس، بعنوان: «المُديرات التنفيذيّات وخرافة الحصول على كل شيء»[١]. قامت الدراسة باستطلاع لأعلى ١٠٪ من النساء ذوات الدخل العالي في مناصب إدارية، بالتركيز على فئتين عمريتين: الجيل الأكبر سنًّا، اللاتي تتراوح أعمارهن بين ٤١ إلى ٥٥ عامًا، وقريناتهنَّ الأصغر سنًّا بين ٢٨ إلى ٤٠ عامًا. وشمل الاستطلاع النساء ذوات المؤهلات العالية اللاتي تركن مسيرتهن المهنية لأسباب عائلية في المقام الأول، وكذلك شملت عينة صغيرة من الرجال.

وجاء في الدراسة[٢]:

» «النتائج مذهلة ومثيرة للقلق؛ فهي توضح أن العديد من النساء وجدن ضغوطات المتطلبات القاسية للمهن العليا، وعدم التماثل في المهام بين الذكور والإناث [يعني يظل على المرأة غالب عبء العناية بالأطفال والمنزل]، فضلاً عن صعوبات إنجاب الأطفال في وقت متأخر من الحياة، كلها تتآمر على مزاحمة طاقة المرأة في إمكانية إنجاب الأطفال [أي لا يستطعن الجمع بين الإنجاب والمهنيّة بسهولة]. لكن عندما يتعلق الأمر بالمهنة والأبوة، فإن الرجال ذوي الإنجازات العالية لا يضطرون إلى التعامل مع مقايضات صعبة: ٧٩٪ من الرجال الذين شملهم الاستطلاع أفادوا بأنهم يرغبون في إنجاب الأطفال، و٧٥٪ منهم لديهم أطفال».

(١) مقالة: المرأة التنفيذية وأسطورة الحصول على كل شيء (Executive Women and the Myth of Having It All) للكاتبة: (Sylvia Ann Hewlett) نشرت في مجلة (Harvard Business Review)، عدد أبريل ٢٠٠٢م.

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة تعقيبية بناء على ما ورد في كامل الدراسة وغيرها من المطالعات.

» «أظهرت الدراسة بشكل عام أنه كلما كان الرجل أكثر نجاحًا زاد احتمال عثوره على زوجة وصيرورته أبًا، وهذا على العكس بالنسبة للنساء، خاصة المتفوّقات مهنيًّا [إذ تقل فرص عثورهن على الشريك المناسب أو رغبة الرجال «العاديين» فيهن وبالتالي تقل فرص صيرورتهن أمهات]. فاتضح أن ٤٩٪ من النساء الألمعيّات ليس لديهن أطفال، في مقابل ١٩٪ فقط من أقرانهن الذكور على نفس المستوى. هذه الأرقام تؤكد عمق ونطاق انعدام التساوي المستمر والمؤلم بين الجنسين في الميزان المهني؛ إذ تواجه النساء جميع التحديات التي يواجهها الرجال كالعمل لساعات طويلة وتحمل ضغوط الصعود أو الخروج من المهن الشاقة، ثم ينفردن بمواجهة التحديات الخاصة بجنسهن [المذكورة في البند السابق]».

» «تدفع النساء ثمنًا باهظًا مقابل ساعات العمل الطويلة لا يدفع مثله الرجال؛ لأن السنوات الأولى من بناء الحياة المهنية تتداخل بشكل شبه كامل مع السنوات الأخصب من عمر المرأة للإنجاب».

» «الفجوة المستمرة في الأجور بين الرجل والمرأة ترجع في المقام الأول إلى العقوبات التي تتعرض لها المرأة عندما تنقطع عن العمل من أجل إنجاب الأطفال.... لا يمكن أن يُعزَى سوى جزء صغير من هذه الفجوة في الأجور إلى التمييز على أساس الجنس. إلا أنه وفقًا للدراسات الحديثة يمكن الآن تفسير جزء كبير من فجوة الأجور بمسألة الإنجاب وتربية الأطفال، إذ هما ما يعطّلان الحياة المهنية للنساء دون الرجال، مما يؤدي إلى تقليص قدرتهن على الكسب بشكل دائم، بالتالي عندما تكون الفجوة بين ما يكسبه الرجال والنساء في بلد أوسع من أي مكان آخر، فهذا ليس لأن هذا البلد قصّر في مكافحة التمييز، بل لأنه فشل في

تطوير السياسات التي تدعم الأمهات العاملات، سواء في بيئة العمل [غير المُعَدَّة للتوافق مع المرأة الأم بل مع المرأة العازبة] وفي المجتمع ككل».

» «تتمتع النساء المحترفات/ الناجحات بخيارات ضئيلة في قسم الزواج، خاصة مع تقدمهن في السن، إذ إن الرجال الناجحين عادة ما يسعون إلى الزواج من النساء الأصغر سنًّا [لا المماثلات كفاءة]! في حين يتحجّم اهتمام النساء الناجحات/المحترفات في مجموعة متقلصة من أقرانهن الناجحين».

» «وفقًا لبيانات مكتب الإحصاء الأمريكيU. S. Census Bureau ، في سن ٢٨ عامًا هناك أربعة رجال عازبين متعلمين جامعيًّا مقابل كل ثلاث نساء عازبات متعلمات جامعيًا. وبعد عقد من الزمان تغير الوضع جذريًّا، إذ في سن ٣٨ عامًا هناك رجل واحد لكل ثلاث نساء! [أي بسبب التغيرات المجتمعية والمفاهيمية المذكورة آنفًا، تزايد عدد النساء العازبات بما فاق عدد الرجال العزّاب وبالتالي ارتفاع احتمالية العنوسة]» اهـــ.

هذا وقد أدّت أجندة العبث الممنهج في الغرب بمبدأ الزواج والتهوين من شأن الحياة الزوجية في مقابل أشكال الحيوات الأخرى إلى ظاهرة «النضج المتأخر»: «صار المراهقون والشباب اليوم يستغرقون وقتًا أطول للنمو حتى مرحلة البلوغ، ولا يشمل ذلك تأجيل النشاط الجنسي فحسب، بل يشمل أيضًا تأجيل الأنشطة الأخرى المتعلقة بالتزاوج والإنجاب، بما في ذلك المواعدة dating والعيش مع شريك عاطفي living with a partner والحمل pregnancy والولادة birth. هذه

الاتجاهات لم تحدث بمعزل، بل هي جزء من اتجاه ثقافي أوسع نحو تبطئة التطور delayed development» اهـ[١].

ومن النسويات اللواتي انتقلن بالتجربة الشخصية من القناعة النسوية للفطرية: جين بابَاكان Jen Babakhan. وهي أمريكية مختصة في العلاقات العامة، وصارت مديرة في مجال التسويق والدعاية. قررت ترك العمل المهني بعد ولادة أول طفل لها للتفرّغ له، وألّفت كتابًا بعنوان «الرحلة الفوضوية المليئة بالنعم من الأم الموظفة إلى الأم المتفرغة لبيتها»[٢]، والذي لاقى رواجًا في الأوساط المحافظة خاصة.

تدعو جين في كتابها إلى «اكتشاف هويتك الحقيقية التي لا علاقة لها بالمسمى الوظيفي، الشعور بالانتماء للمجتمع ومعرفة أنك لست وحدك في رحلة أمومتك. إن الأمومة في المنزل ليست بالأمر السهل، ولكنها يمكن أن تكون أجمل منعطف يمكنك القيام به على الإطلاق» اهـ.

وقد خصّصت في كتابها قِسمًا للكلام على وهم «الحصول على كل شيء» الذي يخدع صاحبته عن موازنة الكِفّة بين المـهنية والأمومة خاصة، فلا تفيق إلا وقد خرجت بفُتات شيء من كل شيء! وفي لقاء بودكاست معها عن تجربتها[٣]، كان كلامها محمَّلاً باصطلاحات الشعور الداخلي بالأمومة والحاجة

(١) مقالة: الأسباب المحتملة لعدم ممارسة البالغين في الولايات المتحدة الجنس بقدر ما اعتادوا عليه (Possible Reasons US Adults Are Not Having Sex as Much as They Used to)، للكاتبة (Jean M. Twenge)، نشرت عام ٢٠٢٠م، في مجلة (Journal of American Medical Association "JAMA").

(٢) كتاب: الرحلة الفوضوية المليئة بالنعم من الأم الموظفة إلى الأم المتفرغة لبيتها، (Detoured: The Messy, Grace-Filled Journey from Working Professional to Stay-at-Home Mom)، للكاتبة (Jen Babakhan)، الناشر (Harvest House Publishers)، عام ٢٠١٩م.

(٣) مقطع مرئي بعنوان: اكتشاف هويتك الجديدة باعتبارك أماً (ربة منزل) (Discovering Your New Identity as a Stay-at-Home Mom)، على قناة يوتيوب (Focus on the Family)، تتحدث فيه (Jen Babakhan)، نشر في ٢٣ سبتمبر ٢٠٢١م.

الغريزية لمصاحبة الطفل وغيرها من الدوافع الفطرية، حتى علق المذيع على ذلك بمدى افتقار مجتمعاتهم إلى «الرؤية الطبيعية للأمور Natural view of things».

الموازنة ودفع الثمن

بالتأمل في كل «السيناريوهات» المحتملة للجمع بين الثلاثية النسوية والحياة الأسرية، ستجد دائمًا في كل حالة مُكتسبًا ومُفتقدًا: فالتي تتزوج مبكرًا قد تفتقد استكمال التعليم الجامعي أو بدء مسيرة مهنية، والتي تتزوج بعد الشهادة الجامعية قد تفتقد العمل في تخصصها، والتي تبني الكارير قد تفتقد عزوة وأنس الأسرة والأبناء في سن متأخرة، هذه سنّة الوجود وطبائع الأحوال، لا أحد يحصل على كل شيء في آن معًا، وإنما هي موازنة، ولكل ثمنه الذي ينبغي الرضى به. ولفظة «الثمن» هنا ليست تهديدًا بخسارة، بل إقرارًا بواقع.

ممن انتقلن من القناعة النسوية إلى الفطرية: جين بابَاكان Jen Babakhan. ألّفت كتابًا بعنوان «الرحلة الفوضوية المليئة بالنعمة من الأم العاملة إلى الأم الماكثة في المنزل»، حيث تدعو فيه المرأة إلى اكتشاف هويتها الحقيقية التي لا علاقة لها بالمسمى الوظيفي، والشعور بالانتماء للمجتمع ومعرفة أنها ليست وحدها في رحلة الأمومة. التي يمكن أن تكون أجمل منعطف يمكنها القيام به على الإطلاق

مبدأ الموازنة ودفع الثمن هذا يسري على الرجال كما النساء؛ فالذي يتزوج مبكّرًا من الرجال يتحمّل كذلك مسؤوليات الرجال بدوره، ويفوته ما يُحصّله الأعزب الذي يقرر الزواج لاحقًا، كما يفوت الأعزب ما يحصّله مبكّر الزواج من مؤاخاة أبنائه صغارًا وإمكان تفرغه لمشاريع شخصية وفيه فتوّة بعد وله عُزوة، في مقابل من يبدأ بالتفرغ لأهله بعد التقاعد ولعل العزوة تكون انفضت بزواج الأبناء أو استقلالهم. فعلى الرجال يسري نفس مبدأ الموازنة والارتضاء، ودفع ثمن العواقب تفويتًا واكتسابًا؛ هذه سنّة الوجود في حق كل موجود.

العواقب الواقعية المترتبة على تعمّد تأخير الزواج

العواقب الوخيمة لتأخير الزواج وما يحققه من إعفاف وإشباع لغزيرة الأبوة والأمومة أشدّ وأنكى مما قد يترتب على تأخير ما يسمى «تحقيق الذات» لما بعد الزواج. فالأولى لا حلّ لها إلا بالصيام ومجاهدة خواطر النفس وتشوّفاتها، وتصبيرها بفرج قريب مع أن فرص الزواج تقلّ مع التقدّم في العمر لتعقيد المعايير والتوقعات الزوجية ضمن عوامل أخرى. فهذا جهاد شاق عسير، تضعف أمامه كثير من النفوس، فتلجأ إلى العادة السرية وإدمان الإباحيات والخيالات الشهوانية (وربما أفحش من ذلك) لتفريغ حاجتها، ويعيش أصحابها من الرجال والنساء مكدّرين أشقياء تعساء، لا يدفعُ عنهم «الكاريرُ» حَرَّ الشهوةِ ولا يُسْكِت فيهم تحقيقُ الذات المهني إلحاحَ الغريزة الفطري.

ومن يدّعي أن النساء غير الرجال في حاجات الشهوة وفورانها أصاب من وجه وأخطأ من آخر؛ فوجه الإصابة أن النساء غير الرجال في طبيعة الشهوة وصور تلبيتها، كأن يغلب على الرجل الانصراف للحسي والفعلي وتعتني المرأة بالمعنوي واللفظي. ووجه الخطأ أن النساء كالرجال في أمرين: أصل الشهوة وأصل الحاجة لإروائها بالشكل السويّ (أي مع الجنس

المغاير)[١]، وكذلك في أصل المعاناة عند فورانها مع عدم القدرة على إروائها بالحلال.

ومن أظهر الأدلّة على ذلك تربّح صناعة الدراما عامة والرومانسية خاصة في كل الثقافات أجنبية وعربية من جيوب النساء ودموعهن بالأساس، إذ هنّ يمثّلن الغالبية الساحقة من جمهور المتابعين بثبات وازدياد، من مختلف الفئات العمرية من سنّ يافع (قُبَيْل المراهقة) Preteen (١١/١٢ سنة) حتى العجائز! وتعجّ الأبحاث والدراسات برصد وبيان أثر الإرواء المعنوي الحسي لتلك المواد، لصِلَتها بإفراز هرمون الدوبامين المغذي للشعور بالنشوة وتهيّج الشهوة[٢]، وما يترتب على هذا من الوقوع فريسة للإدمان، ضمن الظاهرة العصرية لإدمان النشوة Addictin to Pleasure، كما عبّرت صاحبة كتاب «أمّة الدوبامين: إيجاد التوازن في عصر اتباع الهوى»[٣]. بل وصل الحال إلى تأثيرها في البرود الجنسي بين الزوجين، حتى تفشّت ظاهرة استغناء الأزواج بقضاء وقت فراغهم معًا في التفرج على ممارسة العشق التلفازي معنويًّا عن ممارسة

(١) لمزيد من التفصيل في مسائل الشذوذ الجنسي والتعلق القلبي بين الجنسين أو أفراد الجنس الواحد، يُراجع كتاب «قلب مصون»، للمؤلفة.

(٢) مقالة: الشراهة في المشاهدة: ثلاث طرق يؤثر بها التلفاز على صحتك (Binge Watching: Three Ways TV Affects Your Health)، نشرت عام ٢٠٢١م، صحيفة (Northwestern Medicine Journal). ومقالة: العلم وراء شراهة المشاهدة (The Science Behind Why We Binge-Watch)، نشرت عام ٢٠٢٠م، موقع (Wistia).

(٣) كتاب: أمة الدوبامين: إيجاد التوازن في عصر الانغماس (ترجم إلى العربية بهذا العنوان)، (Dopamine Nation: Finding Balance in the Age of Indulgence)، تأليف (Anna Lembke) ٢٠٢١م.

المعاشرة الفعليّة بينهم[١]. فكيف يكون الوقع على غيرهم إذن ممن سيهيج فيهم ما لا سابق خبرة لهم به ولا مَنْفَسَ بالحلال؟!

وأما فورة تحقيق الذات فلا تقوم أصلاً في نَفْس امرأة أدركت خطر دورها في ربَابة البيت على ما سبق بيانه[٢]، فقامت بحقه إيمانًا واحتسابًا لما تنفقه من عمرها وطاقاتها، فضلاً عما تحظى هي به من كفاية مالية، وارتواء فيزيائي ومعنوي بذوق مختلف خبرات الزوجية والوالديّة، فهي بالفعل تعيش أوج تحقيق الذات وخوض غمار حياتها المخصوصة. (وكل أحد في أي دور يخوض غمار الحياة وفق ذلك الدور ومحيطه، ولا يملك أحد أن يخوض غمار كل الحياة في آن معًا). ثم إذا شاءت بعد كل هذا الاستزادة فمجالات الشغل المأجور والتطوعي، والمهني والإبداعي، والتعلم الذاتي لمختلف أنواع المهارات كثيرة مفتّحة الآفاق، لا تستلزم شد الرّحال أو شهادة جامعية بالضرورة، بل المطلوب فحسب إتقان مهارة ما بالدرجة التي تتولد عنها طاقة إنتاج معتبر، ذي جودة وكفاءة في المجال[٣]. وعند هذا المفترق، تجد كثيرًا من الشاكيات يكتفين باتخاذ الشكوى عملاً، ولا تقوم في أنفسهنّ همة ولا دافع حقيقي لأكثر من ذلك، وعادة

(١) مقالة: هل ما تشاهده على التلفاز أو في الأفلام يؤثر على علاقتك؟ (Is What You're Watching on TV or in Movies Affecting Your Relationship?)، للكاتب (Caitlin McNulty)، نشرت في مجلة (Our Relationship Magazine)، عام ٢٠٢١م. ومقالة: الأسباب المحتملة لعدم ممارسة البالغين في الولايات المتحدة الجنس بقدر ما اعتادوا عليه (مرجع سابق). ودراسة: دموع أم مخاوف؟ مقارنة الصور النمطية بين الجنسين حول تفضيلات الأفلام بالتفضيلات الفعلية (Tears or Fears? Comparing Gender Stereotypes about Movie Preferences to Actual Preferences)، للباحثين: (Wühr P, Lange BP, Schwarz S)، نشرت عام ٢٠١٧م، على موقع (Frontiers in Psychology). ودراسة: أعشاب الحب والرومانسية غير الواقعية: الدراما الكورية ونوع «فتى الوردة» (Unrealistic Weeds of Love and Romance: The Korean Drama and the «Flower Boy»)، للكاتب (Colby Y. Miyose)، نشر عام ٢٠١٥م، موقع جامعة (University of Nevada Las Vegas "UNLV").

(٢) تُراجَع المقالات المنشورة في الأعداد السابقة من مجلة رواء للكاتبة.

(٣) لمزيد من التفصيل في مواضيع الشغف واختيارات المسار المهني يراجع كتاب «الأسئلة الأربعة لضبط بوصلتك في الحياة» للكاتبة.

ما تهمد هذه الفورات عندهن بعد نومة هانئة أو نزهة طيبة أو لقاء صحبة أو غيرها من النشاطات الترويحية، وتستمر في دورة حياتها بعدها الاستمرار الذي ترتضيه.

العواقب الوخيمة لتأخير الزواج وما يحققه من إعفاف وإشباع لغزيرة الأبوة والأمومة أشدّ وأنكى مما قد يترتب على تأخير ما يسمى «تحقيق الذات» لما بعد الزواج، ويعيش هؤلاء المتأخرون من الرجال والنساء مكدّرين أشقياء تعساء، لا يدفعُ عنهم «الكاريرُ» حَرَّ الشهوةِ ولا يُسْكِت فيهم تحقيقُ الذات المهني إلحاحَ الغريزة الفطري

تأخير الزواج عمدًا بدعوى التأهيل له

يحتجّ البعض بمفهوم «المسؤولية» مسوّغًا لتعمّد تأخير سنّ الزواج، حتى يبلغ الفتى أو الفتاة من النضج ما يجعلهما مستعدين لتحمّل مسؤولياته. وهذه المعذرة تأخذ منحى الكلام إلى منهج التربية، ومناهج التربية اليوم عامرة بأوجه الخلل والقصور في تنشئة ناشئة الجنسين في كل المراحل العمرية، فتأخر العمر ليس هو ما يصلح التربية إذا لم تكن صالحة أصلاً من أول العمر، كما لا يصلح العطّار ما أفسد الدّهر!

وإن تنشئة الناشئة –ذكورًا وإناثًا– على معاني النضج الوجداني والفكري وتحمّل المسؤولية والقدرة على الكسب وغيرها لا تتحقق بمجرد رميهم في القوالب الدراسية على مدى سنوات هي أزهر سنوات عمر المرء، يليها قوالب وظيفية على مدى سنوات هي سنوات الفتوّة. والواقع خير شاهد بعدم

تحقق تلك المعاني رغم الانتظام في القوالب المدرسية والوظيفية بولاء منقطع النظير، على مدى عقود خَرَّجت في النهاية أجيالاً من العُقَد المتحرّكة على رجلين رغم ما تحمله من شهادات في اليدين!

فلا بد من إصلاح مناهج التربية أولاً قبل طلب إصلاح المتربين بها[١]، وذلك بإعدادها وفق مراد الله تعالى من العباد والتصور الشرعي للوجود وأدوار الخلائق فيه. والذي يقول إنها دعوة للتخلف والرجعية ومخالفة فقه العصر وغيرها من دعاوى هو الذي ما فقه شيئًا حقيقة من العصر أو غيره، وإلا فأين التقدم والازدهار العلمي والنفسي والفكري في بنية الشخصية المسلمة اليوم بالمناهج العصرية المتبعة؟ وكيف حال بيوت المسلمين وتلاحم أهلها وصلاح أحوالها بعد أن انضبط كل أطرافها في كافة القوالب السائدة التي شبّعتهم بالتشوّشات الفكرية والعقد النفسيّة؟

إنَّ التقدم الحضاري والتقني والمعيشي اليوم ما عاد يتطلَّب صرامة الالتزام بالقوالب السائدة لا من حيث الشهادات الدراسية ولا من حيث المهن الوظيفية، فالرجعيّة تكمن حقيقة في الاعتقاد الأصمّ بضرورة الانتظام في القوالب لمجرد الانتظام، أو لمجرد القولبة، أو لمجرد الاستسهال كسلاً وتخاذلاً عن تأصيل نُظُم أصيلة وشقِّ طُرق سويّة تهدف لتعبيد النفوس وفقًا لفطرتها لا عنادًا لها

(١) لمزيد تفصيل في مناهج التربية وقضاياها، يُراجع كتاب «قرّة أعين»، وكتاب «وكان أبوهما صالحًا» للكاتبة.

ثم إن التقدم الحضاري والتقني والمعيشي اليوم ما عاد يتطلب صرامة الالتزام بالقوالب السائدة لا من حيث الشهادات الدراسية ولا من حيث المهن الوظيفية، فالرجعيّة تكمن حقيقة في الاعتقاد الأصمّ بضرورة الانتظام في القوالب لمجرد الانتظام، أو لمجرد القولبة، أو لمجرد الاستسهال كسلاً وتخاذلاً عن تأصيل نُظُم أصيلة وشقِّ طُرق سويّة تهدف لتعبيد النفوس وفقًا لفطرتها لا عنادًا لها!

والسؤال الأكبر الذي ينبغي أن نلتفت له ويشغلنا حقيقة بعد كل هذا: ما الذي أوصلنا أصلاً لهذه الحال اليوم من الحاجة لهذا الكم من المعلمين والمعلمات والمؤسسات التعليمية خارج البيت، بالتوازي مع ضحالة النتاج العلمي والتربوي للمتخرّجين منها؟ ما العوامل التي جعلت المدارس لا مُكمّلاً تربويًّا لدور الوالِدِيّة بل بديلاً ينوبُ عن الوالديّة، التي اقتصرت بدورها على «تجهيز الأولاد للمدارس»! بل وحتى الأثر التربوي للمدارس هو نفسه إلى اضمحلال في ظل اكتساح الميديا الناعمة Soft Media للساحة، ويُسْر الوصول لمختلف أنواع مواد الفرجة والمطالعة والتواصل الأعلى جاذبية والأشد تأثيرًا.

أيهما أفضل في ميزان الشرع: تعجيل الزواج أم تأجيله؟

لا خلاف في التصور الشرعي على فضل الزواج وعِظَم مصالحه وتقدّم أولويته على نوافل العبادات، لمن قدر على مؤنته الأساسية واستوفى شروطه الشرعية من الطرفين. وعلى ذلك، لا تحريج في الشرع على ارتضاء موازنة من موازنات تأجيل زواج أو تعجيله، أو حتى الزهد فيه، وفق الضوابط الشرعية لكل منها.

والقصد في هذا المقام التنبيه على تمييز الأصل من الطارئ في التصور الشرعي لأدوار العباد نساء ورجالاً، وترتيب أولويات الإعداد التربوي والتهيئة النفسية والبدنية على أساس الترتيب

الشرعي لها، لا وضع الزواج من البداية عمدًا على الهامش أو في الحاشية في منهج التربية وفي العُرف العام لترتيب الأدوار والأولويات. فالمطلوب تنشئة عبد مسلم على التصور الشرعي المتكامل لتصحّ حركته في الحياة بوصفه مسلمًا، وتكون قرارته فيها وانسجامه في مختلف الأدوار متسقًا مع هويّته الفطريّة والشرعية لا متناحرًا معها، ولا مدفوعًا بأثر عُقَد مستوردة وتصورات خاطئة.

والقصد كذلك عدم الاستهانة بالدور الأكبر على حساب أدوار لا تتساوى حال التعارض في ميزان أولويات التعبد، والتوقف عن شيطنة تصوير الدور الزوجي وربابة البيت بوصفهما «دفنًا» وجوديًّا، في مقابل تعظيم تحصيل الشهادة والكارير المهني بوصفهما «فرضًا» وجوديًّا! فيُقبِل الأطراف على الزواج يوم يقبلون بنفسيّة مشحونة بمُسلَّمات خاطئة، هي التي تؤدي لتحققها في النهاية: إلى الحبس والدّفن والضحية والسَّأم والكآبة.

> **المطلوب تنشئة المسلم على التصور الشرعي المتكامل لتصحّ حركته في الحياة بوصفه مسلمًا، وتكون قرارته فيها منسجمة في مختلف الأدوار ومتسقةً مع هويّته الفطريّة والشرعية لا متناحرةً معها، ولا مدفوعةً بأثر عُقَد مستوردة وتصورات خاطئة**

الوقف البيئي الإسلامي، ودوره في تحقيق التنمية المستدامة

د. صبحي رمضان فرج سعد
أستاذ جغرافية البيئة - كلية الآداب - جامعة المنوفية بمصر.

الوقف من مفاخر الحضارة الإسلامية، ويعدُّ من أهم معالم التفوق الحضاري للأمة الإسلامية، وقد اتسع كثيرًا فيما مضى حتى شمل مجالات كثيرة وقطاعات شتى، وما زالت كثير من آثاره حاضرةً حتى يومنا هذا، ويقع على عاتقنا اليوم إحياؤه ونشره وبيان مزاياه، حتى يعاود الانتشار وتنعم به البشرية من جديد.

مدخل:

يُعدُّ الوقف من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تحقق التنمية في المجتمع، وتُسهم بشكل فعال في مختلف مناحي الحياة، وقد عرف المجتمع الإسلامي أنواعًا من الأوقاف، وهذا المقال مخصَّصٌ للحديث عن أحد أنواعها وهو الوقف البيئي.

المقصود بالوقف:

الوقف في اللغة هو: الحبس والمنع، والجمع أوقاف. ومعنى تحبيسه: ألا يورث ولا يباع ولا يوهب، ولكن يترك أصله، ويجعل ثمره في سبيل الله عز وجل[١].

وعرّفه ابن حجر الهيتمي رحمه الله بأنه: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه لقطع التصرُّف في رقبته على مصرف مباح»[٢].

وقسّم الفقهاءُ الوقفَ إلى قسمين:

الأول: الوقف الأهلي أو الذُّرّي الذي يختص بالأهل والذرية.

الثاني: الوقف الخيري الذي يعمُّ نفعه على المجتمع بأكمله.

(١) الوقف ودوره في التنمية، للدكتور عبد الستار الهيتي، ص (١٣).
(٢) فتح الجواد بشرح الإرشاد، لابن حجر الهيتمي (٢/٣٦٣).

ومن المفاهيم المستحدثة ذات الأصل في الشريعة الإسلامية ما يعرف بـ «الوقف البيئي»، وهو صورةٌ من صور الوقف الخيري، ويعني «وقف وتسبيل مورد من موارد البيئة أو ما يعمل على خدمة البيئة وحماية مواردها».

وهذا الوقف له علاقة بمسؤولية الإنسان تجاه البيئة، حيث أَمَرهُ الله بعمارة الأرض وإصلاحها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ونهاه عن إتلاف مواردها أو إفسادها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ومسؤولية الإنسان في الشريعة الإسلامية ليست مسؤولية تجاه الأجيال المستقبلية فحسب -كما تؤصِّل لذلك المفاهيم الوضعية المعاصرة- لكنها كذلك مسؤولية يحاسَب عليها أمام الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

الوقف البيئي له علاقةٌ بمسؤولية الإنسان تجاه البيئة، حيث أَمَرهُ الله بعمارة الأرض وإصلاحها، ونهاه عن إتلاف مواردها أو إفسادها، ومسؤولية الإنسان في الشريعة الإسلامية ليست مسؤولية تجاه الأجيال المستقبلية فحسب، لكنها كذلك مسؤوليةٌ يحاسَب عليها أمام الله عز وجل

الأوقاف والتنمية المستدامة:

التنمية المستدامة -كما عَرّفها برنامج الأمم المتحدة للبيئة- هي: «التنمية التي تلبي حاجات الحاضر دون المساومة على قدرة الأجيال المقبلة في تلبية حاجاتهم»[(١)]، وهي تحتوي على مفهومين أساسيين:

- الأول: مفهوم الاحتياجات الخاصة والأساسية للفقراء التي ينبغي أن تعطى لها الأولوية.
- الثاني: فكرة القيود التي تفرض على قدرة البيئة للاستجابة لحاجات الحاضر والمستقبل.

ويستخدم أحيانًا مصطلح «ارتفاق البيئة» مصطلحًا بديلاً للاستدامة، وهو يعني الانتفاع بالبيئة من جهة والحفاظ عليها من جهة أخرى؛ وبذلك فإنه يجمع في مادّته معنى النّفع واللّطف، وهو ما تكفله الاستدامة لكي تفي بمتاع الجيل الحاضر دون الخلل باحتياجات الأجيال القادمة.

ومن الخصائص التي يتميز بها الوقف: البقاء والاستمرارية، فقد تقدم أن الوقف يقوم على بقاء العين، ولا يعني هذا أنه لا يفنى أبدًا، لكنه يبقى لأمدٍ بعيدٍ قضاه الله تعالى، ولا يزول بمجرد استغلاله، وينبثق عن هذه الخاصية أمران:

- الأول: استمرارية الانتفاع بالوقف في أوجه الخير والبر طيلة أزمنة عديدة.
- الثاني: استمرارية الأجر والثواب.

كما أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة

(١) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، مستقبلنا المشترك، ترجمة: محمد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٤٢، الكويت، أكتوبر ١٩٨٩م، ص (٨٣).

جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[١]. فجعلت الشريعة الإسلامية جريان الأجر للميت متعلقًا بمنفعة الأجيال القادمة، والصدقة الجارية هي كل صدقة يجري نفعُها ويدوم أجرها، والجريان هنا بمعنى الاستدامة، فالوقف يدوم نفعه إلى الأجيال القادمة.

وتمثل الأوقاف إحدى مؤسسات وصيغ المجتمع المدني التي ترفد مفهوم التنمية المستدامة، حيث تتضمن بناء الثروة الإنتاجية من خلال عملية استثمار، كما تنظر بعين الاعتبار للأجيال القادمة، وتقوم على التضحية بفرص استهلاكية آنية مقابل زيادة الثروة الإنتاجية، وتستند بقوة إلى الخلفية الدينية (فكرة الصدقة الجارية) بما لذلك من آثار مادية ومعنوية.

والمتأمِّل لواقع الوقف في المجتمع الإسلامي عبر عصوره الطويلة يجد تجسيدًا واضحًا لما كان عليه الوقف من عُمقٍ واتِّساع، فقد تعدَّدت وتنوَّعت أموال الوقف، فشملت الأراضيَ الزراعية والعقارات على مختلف صورها من دور وحوانيت وأسواق ومصانع ومعامل وكتب ومكتبات، كما نجد الموقوف عليهم قد تنوعوا بين فئات وأفراد ومرافق ومؤسسات علمية وصحية وثقافية واقتصادية[٢].

ولكي يتسنّى لأي مجتمع أن ينعم بنوعية حياةٍ مستدامة لابدَّ من تكوين بنيةٍ اقتصاديةٍ ومالية تضمن الاستقرار والأمن البيئي؛ من هنا يأتي دور الوقف البيئي كمصدر مستلهم من التراث والحضارة الإسلامية، كإسهام مؤسسي مالي وقانوني لتمويل ورفد العمل البيئي.

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) الأوقاف والحضارة الطبية الإسلامية، أحمد عوف عبد الرحمن، سلسلة قضايا إسلامية، العدد ١٣٦، القاهرة ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص (٣٣-٣٤).

من خصائص الوقف: البقاء والاستمرارية، فالوقف يقوم على بقاء العين، ولا يعني هذا أنه لا يفنى أبدًا، لكنه يبقى لأمدٍ بعيدٍ قضاه الله تعالى، ولا يزول بمجرد استغلاله، وهذا يعني استمرارية الانتفاع بالوقف في أوجه الخير والبر طيلة أزمنة عديدة، واستمرارية الأجر والثواب

أصناف الوقف البيئي:

يمكن تقسيم الوقف البيئي في التراث الإسلامي إلى نوعين: الأول: وقف الأعيان البيئية، والثاني: وقف التمويل البيئي، فالأول يعني وقف المورد البيئي في ذاته، والنوع الثاني يعني تخصيص عوائد مؤسسات أو صناديق وقفية لمصارف تهدف إلى رعاية البيئة وصون وتنمية مواردها.

النوع الأول: وقف الموارد البيئية:

يقصد بوقف المورد حبس العين للاستفادة منها بشكل مباشر في جميع أوجه الخير، ومن الأمثلة على ذلك:

١- الوقف المائي:

كان للوقف دور كبير في توفير الأمن المائي للمسلمين منذ بداية نشأة الدولة الإسلامية في مدينة الرسول ﷺ، ومثال ذلك «بئر رومة»، فقد روي أن عين رومة كانت لرجل من بني غفار، وكان يبيع منها القِربة بمُد، فقال النبي ﷺ: (تبيعُها بعينٍ في الجنة؟)، فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرُها، فلمّا بلغ ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه اشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي فيها ما جعلتَ له؟

قال: (نعم)، قال: قد جعلتُها للمسلمين[١]. وفي رواية أخرى أنَّ رومة كانت رَكيّة (بئرًا) ليهودي يبيع المسلمين ماءَها، فاشتراها عثمان بن عفان من اليهودي بعشرين ألف درهم، فجعلها عثمان للغني والفقير وابن السبيل.

٢- وقف المراعي (الحمى):

يعد نظام «الحمى» من أقدم النُّظُم التي اتبعها العرب والمسلمون لصيانة الموارد وحمايتها من التعدي عليها، وثمة محميات أوقفها رسول الله ﷺ لخيل الجهاد وإبل الصدقة في سبيل الله، ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: (أنَّ النبي ﷺ حمى النَّقيعَ لخيل المسلمين)[٢].

٣- وقف المزارع والبساتين:

لعل أول وقف خيري عُرف في الإسلام هو وقف سبع بساتين بالمدينة، كانت لرجل اسمه مخيريق، وقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عبد الله بن كعب بن مالك، قال: «قال مخيريق يوم أُحد: إنْ أُصبتُ فأموالي لمحمد ﷺ، يضعها حيث أراه الله. وهي عامة صدقات رسول الله ﷺ»[٣].

وأخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «أصاب عمر بن الخطاب أرضًا بخيبر فأتى النبي ﷺ فاستأمره، فقال يا رسول الله، إني أصبت مالاً بخيبر لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟، فقال: (إن شئتَ حبستَ أصلها وتصدقت بها)، قال: فعمل بها عمر، على أن لا يباع أصلها ولا

(١) معجم الصحابة، للبغوي (١٩١).
(٢) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، للسمهودي، (٢١٩/٣). والحديث أخرجه ابن حبان (٦٢١٨).
(٣) الطبقات الكبرى (٤٣١/١).

أصناف وأنواع الوقف البيئي

النوع الأول: وقف الموارد البيئية

- ١- الوقف المائي
- ٢- وقف المراعي (الحمى)
- ٣- وقف المزارع والبساتين

النوع الثاني: وقف التمويل البيئي

- ١- أوقاف الرعاية الصحية
- ٢- أوقاف رعاية الحيوانات
- ٣- أوقاف الإيواء

يوهب ولا يورث، تصدق بها للفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف»[١].

ومن الأمثلة المعاصرة على ذلك: ما توفره مشاريع وقف الديانة التركي من مياه الشرب النظيفة لأعداد كبيرة من الفقراء في العديد من البلدان الأفريقية وبعض الدول الآسيوية منذ خمسين عامًا، من خلال حفر آبار المياه بدعم المتبرعين في العديد من أقطار العالم الإسلامي، وقد امتدت خدماته لتشمل نحو ٧ ملايين شخص في ٣٩ دولة، عبر ١١١٥ بئرًا وسبيل ماء، ضمن مشروع «قطرة حياة وبئر ماء»[٢].

ومن الأمثلة كذلك: أوقاف الشيخ محمد بن عبدالعزيز الراجحي الزراعية في السعودية، حيث تُعدُّ مزارع الراجحي الوقفية من أكبر المزارع على مستوى العالم، إذ تحوي ما

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٧).
(٢) مشروع آبار المياه، على موقع وقف الديانة التركية باللغة العربية tdv.org.

يقارب ربع مليون نخلة في منطقتي الخَرْج والقصيم، ويتميز نخيل الأوقاف بالأصناف المرغوبة في السوق ذات الجدوى الاقتصادية، وأصبح هذه المشروع في الوقت الراهن أحد أهم روافد الأمن الغذائي في السعودية، كما يعد من أهم المشاريع الزراعية الاستراتيجية في زراعة التمور على مستوى العالم[1].

> **دعا الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة مؤخرًا إلى الوقف البيئي ضمن إطار منهجي معاصر. حيث يوضح هذا المفهوم كيفية استثمار الأموال الوقفية في مشاريع تنموية تخدم البيئة وتراعي الاستدامة الشاملة، وتوجد أمثلة عديدة على هذا النوع من الوقف في التراث الإسلامي**

النوع الثاني: وقف التمويل البيئي:

بزغ هذا النوع خلال العقد الأخير بصور متعددة في الدول الغربية، أبرزها «صناديق الوقف البيئي». ولأهمية ذلك فقد دعا الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة مؤخرًا إلى مأسسة الوقف البيئي ضمن إطار منهجي معاصر. وقد عرض الاتحاد مقترحه حول الوقف للتنمية المستدامة، حيث يوضح هذا المفهوم كيفية استثمار الأموال الوقفية في مشاريع تنموية تخدم البيئة وتراعي الاستدامة الشاملة، وهناك بعض الدول أصدرت صكوكًا خاصة بالوقف البيئي ليسهم كل مواطن في حماية مستقبل أبنائه. وتوجد أمثلة عديدة على هذا النوع من الوقف في التراث الإسلامي، حيث مُولت عبر مؤسسات الوقف العديد خدمات رعاية البيئة، ومن أمثلة ذلك:

(١) موقع أوقاف الشيخ محمد بن عبد العزيز الراجحي t.alrajhi.qvtest.com

١- أوقاف الرعاية الصحية:

كان لنظام الوقف الإسلامي أثرٌ كبيرٌ في دعم خدمات الرعاية الصحية عبر تخصيص الأوقاف للإنفاق من ريعها على المستشفيات، ومن ذلك وقف «القطيفة» التي أوقفها السلطان نور الدين زنكي للإنفاق على البيمارستان الذي بناه في دمشق والذي لعب دورًا في تحقيق الرعاية الصحية للسكان على اختلاف نحلهم[١].

٢- أوقاف رعاية الحيوانات:

استُغل ريع منشآت الوقف في تطبيب الحيوانات المريضة، وكان هناك أوقافٌ للخيول المُسنة والعاجزة، كوقف «أرض المرج الأخضر» بدمشق[٢]. وخصصت في العديد من العهود الإسلامية أوقافٌ لخدمة الحيوانات والرفق بها، فخُصص في الشام وقفٌ لإطعام وسقي القطط الضالة سميت بـ «مدرسة القطاط»، وهي في القيمرية، وكان أحد أحياء التجار في دمشق؛ ووقفٌ للكلاب الشاردة يؤويها ويداويها، سمي بـ «محكمة الكلاب»، وهو في حي العمارة[٣].

وكان في حوز مدينة فاس بالمغرب بلاد موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور، حتى تلتقطها كل يوم من المرتفع المعروف بـ «كدية البراطيل» عند باب الحمراء داخل باب الفتوح، وأيضًا خارج باب الجيسة[٤].

وعثر على وثيقة حُرِّرت في العام (١٣٢٧ هـ) أملاها العلامة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري رحمه الله لوقف في

(١) أثر الوقف في التنمية المستدامة، لعبد الرحمن بن عبد العزيز الجريوي، بحث مقدم لملتقى مقومات تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي، الجزائر، ٢٠١٢، ص (٣٨).
(٢) الأربعون الوقفية، لعيسى صوفان القدومي، ص (١٤٨).
(٣) ذكريات علي الطنطاوي (٣١٢/٧).
(٤) مجلة دعوة الحق، محمد المنوني، العدد الرابع، السنة ٢١، ١٩٨٣م.

بلدة حوطة سدير (شمال مدينة الرياض) يصرف من ريعها وسبيلها على حَمَام الحرم المكي.

> **في ظل المتغيرات الدولية وتفاقم المشكلات البيئية ينبغي أن تبرز مبادرات لأوقاف بيئية معاصرة، كمصدر مستلهم من التراث والحضارة الإسلامية لدعم خدمات من شأنها الحفاظ على البيئة وإثراء مواردها للوفاء باحتياجات الأجيال القادمة**

٣- أوقاف الإيواء:

تزايدت الحاجة عالميًا خلال العقود الأخيرة إلى ما اصطلح على تسميته بـ «المأوى الوقفي»، وبخاصة مع زيادة أعداد النازحين واللاجئين بسبب الحروب والكوارث البيئية التي زادت وتيرتها بحدة خلال السنوات الأخيرة نتيجة التغيرات المناخية. وتاريخيًا انتشرت في بلاد الشام مؤسسات جمعت في وظيفتها بين أمور دينية وعلمية واجتماعية وهي: الخوانق والرّبط والزّوايا، ومن الخدمات التي تكفّل الوقف بتوفيرها: عنايته بأفراد آثروا الخلوة والانقطاع للتعبد، وطلب العلم، وآخرين حرمهم الفقر والعجز عن مجاراة غيرهم في العيش عن طريق تخصيص دور لإيوائهم وإقامتهم وتوفير أسباب الراحة والعيش لساكنيها[١]. ومع تطور الوقت تحولت بعض الأربطة إلى ملاجئ مستدامة لأصحاب العاهات وكبار السن والعميان والمطلقات.

(١) الأوقاف في عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، ليوسف إبراهيم الزاملي وفايز إبراهيم الزاملي، مجلة دراسات بيت المقدس، ٨(٣)، ٢٠١٨، ص (١٣٣).

ومن التطبيقات العملية المعاصرة لأوقاف التمويل البيئي: وقف كليات طبية معاصرة تنطبق عليها المعايير العالمية، كما هو الحال في كلية الطب بجامعة الفيصل وكذلك كليات سليمان الراجحي الطبية في المملكة العربية السعودية؛ مما يسهم في حل مشكلات التعليم الصحي وتقليل النفقات التي تنفقها الدولة على المنح الصحية. كما اتجه العالم لتطوير أنظمة الرعاية الصحية وجعلها أكثر كفاءة بتوفير الرعاية الصحية الأولية للسكان من خلال مؤسسات وقفية يخصص ريعها للإنفاق على توفير الغذاء ومصادر المياه النظيفة وأنظمة الصرف الصحي، وكذلك الوقاية من الأمراض المعدية وخدمات الإعلام والرعاية الصحية[١].

ومن التطبيقات المعاصرة أيضًا: مشروع الصكوك الوقفية لتمويل المشروعات الصديقة للبيئة في ماليزيا، حيث تعتبر الصكوك الخضراء أداة تمويلية جديدة استحدثت للاستثمار في المشاريع الصديقة للبيئة سعيًا لتحقيق التنمية المستدامة، مثل مشاريع الطاقة المتجددة، كبناء محطات توليد الطاقة الشمسية ومحطات الغاز الحيوي ومشاريع طاقة الرياح، ومشاريع النقل التي تقلل من الانبعاثات، والبنية التحتية المتجددة، والإدارة المستدامة للنفايات، والتكيف مع تغير المناخ، والمدن الجديدة وغيرها من المشاريع التي تحتاجها الدول اليوم في ظل تنامي مشاكل الطاقة وزيادة تكاليفها، والأضرار البيئية التي يسببها الوقود الأحفوري. وقد أسهمت الصكوك الوقفية في تعزيز التنمية بصورة مباشرة وغير مباشرة في ماليزيا، كأداة لتنشيط القطاع الخيري، وللحد من ظاهرة البطالة، ولرعاية

(١) الوقف الصحي رؤية مقاصدية تطبيقية، محمد صالح سلطان، منتدى فقه الاقتصاد الإسلامي، دائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، ٢٠١٧م، ص (١٨-٢٢).

الفقراء بتوفير مأوى وتعليم وبيئة صحية ملائمة؛ بما أسهم في تحسين مستويات التنمية البشرية[١].

آثار الوقف البيئى:

في ظل المتغيرات الدولية وتفاقم المشكلات البيئية ينبغي أن تبرز مبادرات لأوقاف بيئية معاصرة، كمصدر مستلهم من التراث والحضارة الإسلامية لدعم خدمات من شأنها الحفاظ على البيئة وإثراء مواردها للوفاء باحتياجات الأجيال القادمة.

وظهرت خلال السنوات الأخيرة مبادرات تحت مسمى «الوقف الأخضر» تقوم على استعمال أصول الأوقاف من أجل الحفاظ على البيئة وخدمة المجتمع المحلي وتحقيق الاستدامة. ويشمل هذا الاستثمار المستدام على سبيل المثال لا الحصر: تشغيل مدرسة أو مسجد أو حفر بئر باستخدام الطاقة الشمسية، أو زراعة حديقة حول المسجد، وكذلك دعم الزراعات العضوية، واستزراع الغابات والصناعات النظيفة البديلة، وتدوير النفايات، وتحلية المياه الصالحة للشرب. كذلك دعم المؤسسات الإعلامية لتسهم عبر برامج هادفة في زيادة الوعي البيئي للمجتمع وإعلاء القيم الإيمانية والأخلاقية في عملية التنمية.

ويفسح هذا الوقف المجال للمشاركة المجتمعية في مشروعاته، مما يساعد على نشر الوعي حول المسائل البيئية وتعزيز الشعور بالمسؤولية بين أفراد المجتمع. ويمكن لهذا الوقف أن يسهم إيجابيًا في جهود التصدي لتغير المناخ، في ظل مواجهة العالم لتحديات بيئية مثل إزالة الغابات وتلوث الهواء وندرة المياه.

(١) مساهمة الصكوك الوقفية في تحقيق التنمية - تجربة ماليزيا نموذجًا، للدكتور سرير الحرتسي حياة، مجلة البشائر الاقتصادية، العدد (١)، المجلد السابع، إبريل ٢٠٢١م، ص (١٩٨-٢١٨).

أصبح من الضروري إنشاء مؤسسة تعنى بالوقف البيئي، تعمل وفق الشريعة الإسلامية يعود إليها استثمار حصيلة الأموال الوقفية للإنفاق على كل ما من شأنه حماية البيئة، ويستلزم ذلك عقد مؤتمر للفقهاء لحسم الخلافات الفقهية حول القضايا المتعلقة بفقه الوقف، وضرورة تخصيص صندوق لبرنامج وقفي مخصص لحماية البيئة ورعايتها

الخاتمة:

في ضوء ما سبق فإن إعادة دور الوقف وتفعيله لرعاية البيئة في الوقت الحاضر يحتاج إلى مزيد من تضافر الجهود على كافة الأصعدة، وتوجيه المبادرات نحو الحاجات البيئية الأكثر إلحاحًا في الواقع، من خلال دفع الواقفين إلى مزيد من التفاعل في تسهيل المنافع المختلفة التي تعود على المجتمع بالفائدة، وبما يتوافق مع مقاصد الشريعة ومصالحها الكلية.

كما أصبح ضروريًا إنشاء مؤسسة تعنى بالوقف البيئي، تعمل وفق الشريعة الإسلامية يعود إليها استثمار حصيلة الأموال الوقفية للإنفاق على كل ما من شأنه حماية البيئة؛ بما يخفف من المسؤوليات الواقعة على كاهل الحكومات، ويستلزم ذلك عقد مؤتمر للفقهاء لحسم الخلافات الفقهية حول القضايا المتعلقة بفقه الوقف، وضرورة تخصيص صندوق لبرنامج وقفي مخصص لحماية البيئة ورعايتها.

السيرة النبوية منطلق لتربية الفرد وإصلاح المجتمع

د. عبد الفتاح محفوظ
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - بجامعة ابن طفيل - المملكة المغربية.

تتميز السيرة النبوية بشموليتها واستيعابها لجميع تفاصيل الحياة، وحاجة المسلمين اليوم لدراسة تعاليم السيرة النبوية وقواعدها وأخلاقها كبيرة؛ لما تتعرَّض له الأمة من محاولاتٍ لطمس هويتها وحضارتها وقيمها، ولذلك كان لا بد من العودة إلى دراسة السيرة النبوية والاعتناء بها باعتبارها تطبيقًا منهجيًا لتعاليم القرآن الكريم؛ ولأنَّها تمثل النموذج النبوي الفريد للتغيير والإصلاح المنشودين.

المقدمة:

السيرة النبوية تجسيدٌ وترجمةٌ عمليةٌ وواقعيةٌ مأثورة لحياة النبي ﷺ، وتطبيقٌ واقعيٌ لكل ما جاء في القرآن الكريم، فقد وصف الله تعالى نبيه الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وسُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «فإن خُلُق نبي الله ﷺ كان القرآن»[١].

وسيرته ﷺ تشمل كل تفاصيل حياته ﷺ بما في ذلك صفاته الخَلقية والخُلُقية، وغزواته وسراياه، ومعجزاته، وكل ما عاشه ووقع أثناء وجوده ﷺ في هذه الحياة، فهي شاملة لكل جوانب الحياة الإنسانية، لذا اعتبرت سيرته منهجًا متكاملاً ونموذجًا فريدًا يحتذى به في كل مجالات الحياة، لذلك دعانا الله تعالى إلى الاقتداء بهذه السيرة النبوية، والسير على خطاها ونهجها القويم كما في صريح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

ازدياد الحاجة للسيرة النبوية اليوم:

حاجة الأمة الإسلامية اليوم إلى دراسة السيرة النبوية واستحضار مقتضياتها وتوجيهاتها حاجة ماسة؛ بقصد السير على هداها، والاقتداء بآثارها الحميدة، فالسيرة النبوية تعتبر منبعًا ورافدًا للأخلاق والقيم الإسلامية النبيلة، ومعيارًا ومقياسًا لها. وإن العمل بتعاليم سيرته ﷺ على حقيقتها يحقق للأمة مقام الخيرية التي وصفها بها الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإذا كان صحابة رسول الله ﷺ مطالَبين بالاقتداء والتأسي به، فالحاجة في زماننا هذا أعظم وأكبر؛ لثلاثة أسباب مهمة:

١. الخواء الروحي الذي يعيشه معظم الناس:

وهي نتيجة طبيعية للغفلة، وبُعد الناس عن معين الوحي، وانشغالهم باللهاث خلف الدنيا، ومتابعات الماجريات من أخبار السياسة والرياضة فضلاً عن الفن والتوافه، «ونحن اليوم نلاحظ أن كثرة ما يحيط بنا من أشياء قد صرف أذهان كثيرين منا عن الاهتمام بتزكية سرائرهم وإثراء أرواحهم، مع أن الفقر الحقيقي هو فقر الروح، وقحط المعنى، وقد صدق الذي قال: إن رجلاً لا مال له هو رجل فقير، وأفقر منه رجل لا يملك سوى المال!»[١].

٢. تلوث القيم التي يعتنقها الناس بالقيم الغربية المادية:

وهذا عائد إلى السيطرة الغربية على العالم الإسلامي منذ عهد الاستعمار، وانبهار كثير من أبناء المسلمين بهم وبمدنيتهم التي نشأت في العصر الحديث في انقلاب صارخ على القيم الدينية الكنسية المحرَّفة، وبنائها على نظريات وأفكار تحارب الإيمان مثل نظرية داروِن الذي «قرر حيوانية الإنسان، فنفى عنه

(١) مقالة الأرواح الخاوية، د. عبدالكريم بكار، موقع إسلام ويب islamweb.com .

تلك النفحة الإلهية التي رفعته عن مستوى الحيوان، وهبط به إلى الأرض، لا يحلق ولا يسمو إلى الملكوت الأعلى... إنَّها فلسفة ترفض كل ما لا تستطيع الحواس أن تدركه، ولا تؤمن إلا بهذا الواقع الصغير الذي يبصره العقل ويصل إلى ميدانه العلم. ومن هذه الفلسفة المادية نشأت كل النظريات الغربية الحديثة، وكل الفلسفات المسيطرة عليها. منها نشأت شيوعية كارل ماركس في الشرق، وفلسفة فرويد في أوروبا، والبراجماتيزم في أمريكا، وكلها تمثل أصلاً واحدًا وإن اختلفت المظاهر والفروع»[(١)].

إذا كان صحابة رسول الله ﷺ مطالَبين بالاقتداء والتأسي به، فالحاجة في زماننا هذا أعظم وأكبر، لثلاثة أسباب: الخواء الروحي الذي يعيشه معظم الناس، وتلوث القيم بالقيم الغربية المادية، واضطراب الإيمان بصلاحية هدي النبي ﷺ لزماننا

٣. اضطراب الإيمان بصلاحية هدي النبي ﷺ لزماننا:

وهو نتيجة طبيعية للسببين السابقين، فمن ابتعد عن نور الوحي وانبهر بعدُوه وتشرب بأفكاره ونظرياته الفلسفية؛ فهو بلا شك سينظر للشريعة وللهدي النبوي على أنه شيء تاريخي عفا عليه الزمن، خصوصًا مع كثرة طَرق الغربيين وخصوصًا المستشرقين لهذه الشبهة، ورواجها على كثير ممن تصدوا للتعليم والتأليف والظهور على الشاشات، ونشرهم لها في منابرهم، وإذا تجاوزنا الدوافع المغرضة فلا نشك للحظة أن الجهل بسيرة النبي ﷺ سبب من أسباب ذيوع هذه الشبهة.

(١) الإنسان بين المادية والإسلام، لمحمد قطب، ص (١٦).

كل واحد من هذه الأسباب كافٍ لوحده في النهوض للعناية بالسيرة النبوية المطهرة، واعتبارها منطلقًا لتربية الفرد وإصلاح المجتمع.

مزايا السيرة النبوية العطرة:

تَرجَمَ الرسولُ محمد ﷺ القرآنَ الكريم من خلال سيرته، كما وصفته عائشة رضي الله عنها، يقول ابن رجب: «تعني أنه تأدب بآدابه وتخلق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمه القرآن كان فيه سخطه»[1]. ولذلك فالعلم بها ودراستها والوقوف على تفاصيلها وتعليمها للناس في غاية الأهمية، ونجمل فيما يلي أهم مزايا السيرة النبوية:

١. الدقة والتفصيل:

السيرة النبوية فيها من الدقة والتفصيل ما يمكِّن المرء من معرفة سلوك النبي ﷺ في أدق التفاصيل، فنحن نعرف مثلاً ماذا أكل، وأين ومتى أكل، وكيف أكل، وكم إصبعًا استخدم في أكله، وماذا قال قبل وبعد أكله، وما هي الأطعمة التي يحبها والتي لا يحبها، وقل مثل ذلك التفصيل في أي شأن من شؤونه، سواء كان شأنًا من شؤون العبادة أم حياته العامة، كالصلاة والجهاد، والسفر والنوم، بله في أخص الخصوصيات كقضاء الحاجة والحياة الزوجية الخاصة.

٢. التنوع والشمول:

النبي ﷺ هو النبي الوحيد الذي نعرف جميع مراحل وأحوال حياته، فظروف ولادته مدونة، وكذلك رضاعته ونشأته وشبابه وزواجه، والأعمال التي عملها قبل النبوة، وظروف نبوته ومراحل حياته ودعوته ووفاته، بما في ذلك من أحداث

(١) جامع العلوم والحكم (٣٧٠/١).

ووقائع، وسفر وإقامة، وجوانب تربوية واجتماعية واقتصادية وعسكرية، وأحوال خاصة ومواقف عامة، «وقصارى القول: إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مُربٍّ، وكل سياسي، وكل رئيس دولة، وهكذا... ونحن لا نجد مثل هذا الشمول ولا قريبًا منه فيما بقي لنا من سير الرسل السابقين، ومؤسسي الديانات والفلاسفة المتقدمين والمتأخرين...»[(١)].

٣. الواقعية والمعقولية:

لقد عاش النبي ﷺ حياة قابلة للتأسي بها من جميع الناس، وسيرته متنوعة بين الغنى والفقر، والشدة والرخاء، والمرض والصحة، والخوف والأمن، والنصر والهزيمة، ولذلك يجد فيها الفقير والمريض والمحزون والخائف ما يتأسى به، فضلاً عن الغني والصحيح والمطمئن والآمن، وباعتبار أن سيرة أصحابه مِن حوله لا تنفصل عن سيرته، فالواقعية آكد وأقرب. والنبي ﷺ في هذه السيرة يرضى ويغضب، ويتزوج ويطلق، ويشتري ويبيع، ويسافر ويقيم، كأي بشر آخر ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ولا يخرج عن هذا إلا معجزاتُه وخصوصياته ﷺ، وهي ليست بدعًا في حق الأنبياء والمرسلين في مسيرة البشر منذ أن خلق الله آدم عليه السلام.

٤. الكمال البشري:

بالرغم من التفصيل الدقيق لما نقل عن النبي ﷺ والتنوع الكبير فيه لجميع مراحل حياته، فإنك لا تجد في هذه السيرة ما يُعاب أو يُذم، أو يعتبر نقيصة في حال من الأحوال، وهذا

(١) السيرة النبوية - دروس وعبر، للدكتور مصطفى السباعي، ص (١٩).

يشمل سيرته قبل النبوة وبعدها، وما ظهر منه أمام الناس، وما نقل عنه في بيوت نسائه، ومع خواص أصحابه، وفي ذلك كله لم ينقل عنه فحش في القول أو بذاءة في اللسان أو غدر في العهد أو غضب للنفس، بل كان يقابل الإساءة بالإحسان والأذى بالعفو والإحسانَ بخير منه، حتى اضطر أعداؤه للثناء عليه قديمًا وحديثًا لما رأوا من كرم أخلاقه وسمو شيمه، فالنبي ﷺ يمثل نموذج الكمال البشري الذي يجب على المسلمين الاقتداء والتأسي به.

٥. الموثوقية والمصداقية:

ما نقل عن النبي ﷺ يملأ مجلدات كبارًا، وما صح من سيرته كبير جدًا، رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة التي يرويها الثقات، وما عدا ذلك مما رواه مصنفو التاريخ والمغازي فالقسم الأكبر منه نال قَبول جماهير العلماء، فعكفوا على تدريسه وروايته والاستشهاد بوقائعه، وتربية النشء عليه.

وهذه الموثوقية مما لم يتوفر مثله ولا نصفه ولا ربعه ولا عشره لأي شخصية أخرى على مدار التاريخ، بل إن ما يروى عن كثير من أعيان وعظماء الأمم الأخرى لا تكاد تجد فيها نقلاً واحدًا ينتهج النهج العلمي في تدوين الأخبار ونقلها، وهذا إذا جمع مع بقية الصفات فهو يؤكد صحة وأهمية الانطلاق من هذه السيرة لتربية الفرد وإصلاح المجتمع.

«إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مُربٍّ، وكل سياسي، وكل رئيس دولة، وهكذا...»
مصطفى السباعي

كيف تكون السيرة النبوية منطلقًا لإصلاح الفرد والمجتمع؟

من خلال الحديث عن مزايا السيرة النبوية ودواعي الحاجة لها اليوم يتبين لنا أن دراسة السيرة النبوية والوقوف على حقائقها تعد منطلقًا لأجل إصلاح الفرد والمجتمع؛ فهي: «تجمع عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورية لعلماء الشريعة والدعاة إلى الله والمهتمين بالإصلاح الاجتماعي، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس بأسلوب يجعلهم يرون فيها المعتصَم الذي يلوذون به عند اضطراب السبل واشتداد العواصف، ولتتفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم، ويكون الإصلاح الذي يدعو إليه المصلحون، أقرب نجاحًا وأكثر سدادًا»[(١)].

والسيرة النبوية تعد المفتاح الأساس والملجأ المهم للمربين والمعلمين والدعاة إلى الله تعالى وحاملي لواء الإصلاح، كما تعد رافدًا ومصدرًا مهمًا لإعانة هؤلاء على حفظ المجتمع وحمايته ضد كل ما يسعى إلى التحريف العقدي والأخلاقي لأفراد الأمة، وكذا صد كل مظاهر الغلو والتطرف والعنف والإقصاء وغير ذلك من العلل التي تخرم المجتمع وتؤدي به إلى ما لا تحمد عقباه، وفي هذا الشأن يقول الدكتور علي محمد الصَّلَابي: «إن دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، يساعد العلماء والقادة، والفقهاء والحكام، على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون على فقه النبي ﷺ في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع...»[(٢)].

(١) السيرة النبوية - دروس وعبر، للدكتور مصطفى السباعي، ص (١٥).
(٢) السيرة النبوية – عرض وقائع وتحليل أحداث، للدكتور علي الصلابي، ص (٧).

وقد تفطن السلف الصالح إلى هذه الأهمية البالغة للسيرة النبوية، ولدورها المهم في بناء النشء وتربيته تربية حسنة، ولهذا يقول الشيخ محمد أبو شُهبة: «لقد كان السلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية يدركون ما لسيرة خاتم الأنبياء، وسير الصحابة النبلاء، من آثار حسنة في تربية النشء، وتنشئة جيل صالح لحمل رسالة الإسلام، والتضحية في سبيلها بالنفس والمال، فمن ثَمّ كانوا يتدارسون السيرة، ويحفظونها، ويلقنونها للغلمان كما يلقنونهم السور من القرآن، روي عن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: «كنا نعلَّم مغازي رسول الله ﷺ كما نعلَّم السورة من القرآن»[(١)].

فما أحوجنا اليوم أن نتعلم من دروس السيرة ما ينفعنا في كل جوانب حياتنا، وأن نلتزم بالقيم والأخلاق التي طبقها النبي ﷺ في سيرته، فنجسدها في حياتنا ومعاملاتنا، وعن شدة حاجتنا إلى السيرة النبوية في عصرنا الحالي يحدثنا الدكتور مهدي رزق الله أحمد بقوله: «وتزداد الحاجة اليوم إلى إبراز جانب القيم الأخلاقية في السيرة النبوية بالنظر إلى طغيان الحياة المادية بما تحمله من فتن الشهوات والشبهات في حياة الشباب والفتيات على وجه الخصوص، وسائر أفراد المجتمعات بشكل عام، مما يجعل المربين والمربيات أمام تحديات غير مسبوقة في محاولاتهم لبناء التحصين الذاتي، وتعزيز الجانب القيمي والأخلاقي أثناء تربيتهم للأجيال»[(٢)].

وحتى تقوم السيرة النبوية بوظيفتها المنوطة بها وتحقق غاياتها ومقاصدها التي أشرنا إلى بعض منها آنفًا -خاصة فيما يتعلق بمجال إصلاح الفرد والمجتمع- لابد من الالتزام والتقيد بجملة من الإرشادات المنهجية، نذكر بعضًا منها:

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبو شُهبة (٨/١). والأثر رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ص (١٩٥).
(٢) القيم التربوية في السيرة النبوية، للدكتور مهدي رزق الله أحمد، ص (٥).

- **أولاً:** الاهتمام بتعليم ونشر مضامين السيرة النبوية، وقراءتها قراءة منتظمة ومستمرة، وألا نكتفي بقراءتها وتداولها في المناسبات والأحداث الدينية فقط، بل تخصص كل أسرة مجلسًا أسبوعيًا لذلك، وتخصص وزارات التعليم مناهج وبرامج في مادة السيرة النبوية لجميع المستويات الدراسية، حتى لا يبقى مسلم غير عارف بتفاصيل حياة قدوته وأسوته ﷺ.

- **ثانيًا:** التعامل مع السيرة النبوية باعتبارها سجلاً عمليًا تفاعليًا، بهدف التأسي والاقتداء، والاتعاظ والاعتبار، لا باعتباها نصًا تاريخيًا يوثق الأحداث والوقائع ويسردها سردًا صرفًا لا غاية من ورائه. وقد انبرى كثير من الباحثين المسلمين لأجل هذه الغاية، فألفوا كتبًا غرضها ربط أحداث السيرة بالعبر والدروس، وجلهم أكدوا على أن المقصد الأسنى من دراسة السيرة النبوية ليس الوقوف على الأحداث والوقائع التاريخية وسردها، بل الغرض من ذلك معرفة الجوانب التي تفيدنا في حياتنا، وتجلي لنا التصور الصحيح لحقائق الإسلام ومبادئه وقيمه الحضارية العظيمة.

- **ثالثًا:** تقريب السيرة النبوية لجميع الناس، وذلك بتصنيف دراسات تخصصية أو موضوعية بديعة تنهل من معين سيرة نبي الرحمة ﷺ الذي هو المثل الأعلى، من خلال تناول مختلف مجالات الحياة الدينية، والروحية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها من المجالات، وكذلك إعداد موارد إعلامية ورقمية في مواضيع السيرة النبوية مناسبة لمختلف منصات الإعلام والشبكات الاجتماعية، وكذا العمل على ترجمة تعاليم السيرة النبوية إلى مختلف اللغات العالمية، بحيث تكون هذه المنتجات والمؤلفات مواد متخصصة في الجوانب الإنسانية والاجتماعية من هديه

وحياته ﷺ، ومناسبة للمشاهد العابر ومتاحة للجميع بمختلف الصور والأشكال الحديثة.

- **رابعًا:** إقامة الفعاليات والأنشطة المجتمعية التي تعرف بسيرته ﷺ، مثل الاتحادات والروابط والجمعيات، وكذا تنظيم المهرجانات والمسابقات والبرامج الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة، وتخصيص مؤتمرات وملتقيات للتعريف بسيرته وتفاصيل هديه ﷺ.

- **خامسًا:** الوعي بضوابط الاتباع والاقتداء بالنبي ﷺ، وهذا يتطلب من أهل العلم عدم بناء الأحكام على ما جاء في السيرة دون التأكد من صحة الرواية من خلال مدونات السنة الصحيحة، والتنبه لخصوصياته التى اختص بها ﷺ، فقد وردت أمور خاصة بالنبي ﷺ حدّدها العلماء كزواجه ﷺ بأكثر من أربع، ووصاله في الصيام.

> **تعدُّ السيرة النبوية المفتاح الأساس والملجأ المهم للمربين والمعلمين والدعاة وحاملي لواء الإصلاح، كما تعد رافدًا ومصدرًا مهمًا لإعانة هؤلاء على حفظ المجتمع وحمايته ضد كل ما يسعى إلى التحريف العقدي والأخلاقي لأفراد الأمة**

وفي الختام:

نخلص إلى أن السيرة النبوية تعد مصدرًا ومنبعًا لا ينضب للقيم الإسلامية، وهذه القيم ليست مثالية كما عند من نَظّر للمدينة الفاضلة الخيالية، وإنما هي قيم واقعية مجسدة ومطبَّقة، كان أول من طبقها المعلم الأول المؤيد بالوحي النبي ﷺ، وصحابته رضي الله عنهم، ومن هنا فإن للسيرة النبوية أهمية بالغة

في إصلاح الأمة، وتعتبر وجهة وقبلة كل المصلحين؛ لأنها تجسد حياة المصلح الأول وهو الرسول ﷺ، فيجب أن نتعلم منه كيف يكون الإصلاح؟ ومن أين يبدأ؟ وإلى أين ينتهي؟

وهذا الأمر بلا شك يتطلب فقهًا ومنهجًا عمليًا لدارسة السيرة النبوية وتدريسها للمتعلمين وطلبة العلم بمراعاة كل فئة على حدة وحاجياتها العمرية إلى دروس السيرة، كما ينبغي على علماء الأمة أن يرشدوا الناس إلى حسن التعامل مع السيرة النبوية الشريفة، وذلك على غرار ما كتب في السنة النبوية، فقد كتب الشيخ يوسف القرضاوي كتابًا سماه: «كيف نتعامل مع السنة النبوية؟» وما أحوجنا اليوم إلى كتاب شامل يجسد لنا منهجية التعامل مع السيرة، وبالرغم من غزارة وكثرة جهود علماء الأمة في هذا الشأن، غير أن إرشاداتهم ظلت متفرقة تحتاج إلى جمع ورصد وتصنيف.

وعلى كل حال فكلامنا عن دور السيرة النبوية في الإصلاح في هذا المقال غيض من فيض، ونقطة من بحر، وإنما كانت كتابتنا في هذا الموضوع محاولة لتجلية هذه الآثار لعلنا ننتبه إليها، وندرك أثر تعلم السيرة النبوية ونشرها وتدريسها في نشأة مجتمع صالح ومصلح، فإن وفقنا فمن الله تعالى، وإن أخطأنا وجانبنا الصواب فمن أنفسنا، والله الموفق إلى سواء السبيل.

للسيرة النبوية أهمية بالغة في إصلاح الأمة، وتعتبر وجهة وقبلة كل المصلحين؛ لأنها تجسِّد حياة المصلح الأول صلى الله عليه وسلم، فيجب أن نتعلَّم منه كيف يكون الإصلاح؟ ومن أين يبدأ؟ وإلى أين ينتهي؟

مخاطر شبكات التواصل الاجتماعي على الأسرة المسلمة

أ. هند معوض
كاتبة وأديبة مهتمة بالقضايا الاجتماعية والأخلاقية - مصر.

سهّلت وسائل التواصل الاجتماعي الاتصال بين البشر، ووفّرت فرص التعليم والعمل عن بعد، لكنها أيضًا سيطرت عليهم، وهزت كيان أسرهم، وساعدت على تصدّر التافهين، وغياب الهوية وانحراف العقيدة، وانتشار الأمراض النفسية والعصبية، فبات من واجب أرباب الأسر أن يستعيدوا دورهم التربوي، ويعيدوا الدفء والمودة إلى البيوت.

الأسرة هي البنيان الأساسي للمجتمع، لذا تحظى بالمكانة العالية في الإسلام، الذي حث على تكوين الأسرة المسلمة كما في الحديث الشريف: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء)[1].

وقد حرص الإسلام على تعزيز العلاقة الزوجية وتوفير المودة والرحمة بين الزوجين، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

ودعا المرأة لطاعة زوجها، وكذا أوصى الرجال بالنساء خيرًا؛ ولهذا كان لزامًا على الزوجين أن يحافظا على ذلك الميثاق الغليظ، ويجاهدا لحماية تلك الأسرة من أي رياح عاتية تهب لتقتلع ذلك البنيان المتين.

فالتواصل بين البشر غاية منشودة، لتحقيق إعمار الأرض وتعزيز التعارف بين البشر، واكتساب المعرفة، وتبادل الخبرات والمعلومات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد توسعت آفاق الاتصال بين البشر، وظهرت مواقع للتواصل الاجتماعي مع بداية القرن الحادي والعشرين، أو ما يعرف بـــ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).

«السوشيال ميديا»، ورغم أن البشرية عجزت عن التوحد حول هدف أو محتوى يجمعهم إلا أن استخدام هذه الشبكات والتفاعل عليها كان شيئًا توحدوا حوله من الشرق إلى الغرب، وكان له أثرٌ كبير على البشريةِ جمعاء على اختلاف أعراقهم وألوانهم.

ولما كان لزامًا لمواقع التواصل الاجتماعي أن تكون جزءًا من حياتنا فمن الضروري تقنين استخدامها ومحتواها، لتحقيق الإفادة المرجوة.

الأسرة المسلمة ورياح التغيير:

في عصر الثورة التكنولوجية الهائلة واتساع الاتصال بين البشر، أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي جزءًا لا يتجزأ من حياة البشر بما في ذلك الأسر المسلمة، التي وقفت في مهب تلك الرياح العاتية، واستطاع بعضُهم الصمود دون أن تنالَ من عقيدته وثوابته، لكن آخرين جرفتهم الرياح في طريقها وبدلت أحوالهم، وبدا السؤال الذي يُلح: هل تلك المواقع أثرت إيجابًا أم سلبًا على الأسر المسلمة؟

> **المؤكد أنه لا شيء مؤذٍ بشكل مطلق أو ضار مطلقًا، بل إن كل شيء يجمع بين الخير والشر والنفع والضرر، وتبقى الفكرة الأساسية في كيفية استخدام البشر له والانتفاع به**

نسمات الخير:

لا يمكن إنكار أن بعضًا من آثار وسائل التواصل كانت بمثابة النسمات الطيبة التي حملت الخير معها، ومن تلك الآثار الطيبة:

١- التواصل المحمود:

فقد وسّعت وسائل التواصل الاجتماعي سبل الاتصال والتواصل، بما يتضمن ذلك من فوائد متعدد مثل: تقريب وجهات النظر وتصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة، وتصحيح الصورة المغلوطة عن الإسلام وتعريف أصحاب الديانات الأخرى به، وتحقيق التواصل الثقافي والفكري والسياسي بين الأفراد من شتى البقاع، وباتت تلك المواقع منابر مفتوحة لعرض الآراء البناءة والترويج لها، كما أن التواصل عبر تلك المنابر ساهم بشكل كبير في توجيه الرأي العام العالمي تجاه الكثير من القضايا الدولية التي كانت غائبة أو مُغيبة قسرًا عن الإعلام لعقود وأبرزها القضية الفلسطينية، وقضية مسلمى الروهينجيا، والحرب في السودان وغيرها من القضايا العربية والإسلامية، وبالتالي: فإن الدور الإيجابي لتلك المواقع في التواصل لم يقتصر على التواصل الفردي فقط بل تخطى ذلك لتصبح منابر مفتوحة تعرض الآراء المتنوعة وتمنع تحكم الأقوياء في الرأي العالمي وتوجيهه.

٢- التعلم عن بُعد:

وفّرت مواقع التواصل الاجتماعي فرصًا جادة للتعلم عن بعد، حيث أعطت الفرصة لمن فاته قطار التعليم أو لمن يبحث عن تعلم مهارات وخبرات إضافية ليلحق بركب التعليم من جديد دون أعباء إضافية، وقد شهدت هذه السوق إقبالاً ملحوظًا، وبحسب إحصاء نشرته مجلة innovito فإنه من المتوقع أن يصل سوق التعليم الإلكتروني العالمي إلى ٣٣٦,٩٨ مليار دولار بحلول عام ٢٠٢٦.[١]

(١) مقال بعنوان: إحصائيات هامة عن التعليم الإلكتروني نشر بمجلة Innovito.com وهي مجلة تهتم بالتعليم الإلكتروني، وقد حصلت على جائزتين ذهبيتين مرموقتين من جوائز ستيفي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لعام ٢٠٢٤م.

والمؤكد أن الأسرة المسلمة لم تنفصل عن ذلك الإقبال الهائل على التعلم الإلكتروني، ولعل المجال بات مفتوحًا لكل أفراد الأسرة لأخذ قسط وافٍ من التعليم سواء التعليم الأكاديمي أو الحر.

٣- فرص للعمل عن بعد:

وفرت مواقع التواصل الاجتماعي فرص عمل مناسبة لكافة أفراد الأسرة وبالأخص للمرأة، حيث استطاعت العمل من المنزل وتوفير دخل إضافي للأسرة دون النزول لسوق العمل أو الإخلال بدورها الأسري والتربوي، وقد أظهرت دراسة أمريكية حديثة أن نسبة النساء المالكات لمشاريع تدار عبر الإنترنت في منطقة الشرق الأوسط تُعد هي الأعلى في العالم بأكمله.

كما يمكن للرجال والشباب كذلك العمل عبر المنصات الإلكترونية وتوفير دخل إضافي لأسرهم وهذا ما فتح أبواب العمل والرزق لكل أفراد الأسرة لمواجهة سوء الأحوال الاقتصادية والبطالة[١].

الآثار السلبية لمواقع التواصل الاجتماعي أشبه بالريح العاتية التي تدمر ما يواجهها في الطريق، وهذا ما يهدد بنيان الأسرة المسلمة، فالخطر داهم وعواقبه وخيمة خصوصًا أن تلك المواقع أصبحت تستهلك الجزء الأكبر من وقت كل فرد في الأسرة

(١) بحسب تقديرات البنك الدولي في ٢٠٢٣ فإن أعداد العاملين في الوظائف المؤقتة عبر الإنترنت تتراوح ما بين ١٥٤ إلى ٤٣٥ مليون عامل.

ريح صرصر عاتية:

أما الآثار السلبية لمواقع التواصل فهي أشبه بالريح الصرصر العاتية التي تهب حاملة العذاب والهلاك، وتدمر ما يواجهها في الطريق، وهذا ما يهدد بنيان الأسرة المسلمة من الأساس ويجعلنا نطلق صافرات الإنذار للتنبيه وأخذ الحيطة، فالخطر داهم وعواقبه ستطال المجتمع بأسره وخاصة وأن تلك المواقع أصبحت تستهلك الجزء الأكبر من وقت كل فرد في الأسرة، وقد كشف تقرير موقع داتا ريبورتال لعام ٢٠٢٣م أن معدل الوقت المستهلك على مواقع التواصل الاجتماعي شهريًا للفرد الواحد خلال عام ٢٠٢٢م كالآتي: (٢٣) ساعة يوتيوب، (١٩) ساعة فيسبوك، (١٧) ساعة واتساب، (١٢) ساعة إنستجرام، (٢٣) ساعة تيك توك، (٣) ساعات ماسنجر، (٣) ساعات على تليجرام، (٥) ساعات تويتر، و (١٠) ساعات سناب شات[١].

التأثير المباشر لتلك المواقع على بنيان الأسرة:

من المؤكد أن مواقع التواصل الاجتماعي تؤثر تأثيرًا مباشرًا على الأسرة، ومن الآثار المدمرة لتلك المواقع:

١- ارتفاع نسب الطلاق:

إن إدمان الجلوس على مواقع التواصل الاجتماعي يسبب تفكك الأسر المسلمة ويهدد بنيانها بأكمله بالانهيار، حيث ينعزل الزوجان عن بعضهما البعض وكذا عن أبنائهما، والإفراط في هذا الأمر يؤدي إلى الشعور بعدم الاكتفاء الزوجي؛ الأمر الذي قد يزيد وتيرة المشاكل الزوجية ويرفع من احتمالات الطلاق.

(١) تابع التقرير السنوي لموقع داتا ريبورتال datareportal.com، بعنوان (DIGITAL ٢٠٢٣: GLOBAL OVERVIEW REPORT) لعام ٢٠٢٣م.

وبحسب تقارير سعودية فإن هناك زيادة غير مسبوقة في معدلات الطلاق خلال عام ٢٠٢٢م، حيث وصلت لـ ١٦٨ حالة يوميًا، بواقع ٧ حالات طلاق في كل ساعة، وبمعدل يفوق الحالة الواحدة كل ١٠ دقائق، وكشفت التقارير أن مواقع التواصل الاجتماعي برزت سبباً رئيسًا في ازدياد هذه المعدلات[١].

كما يشير تقرير صادر عن مركز معلومات مجلس الوزراء الكويتي إلى أن الكويت هي الأولى على رأس قائمة الدول العربية في ارتفاع معدلات الطلاق، إذ ارتفعت نسبة الطلاق بها إلى ٤٨٪ من إجمالي عدد الزيجات، وتعد وسائل التواصل الاجتماعي أحد الأسباب[٢].

وبحسب الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء في مصر فإن عدد حالات الطلاق في مصر سجل ٢٦٩,٨ ألف حالة عام ٢٠٢٢م، مقابل ٢٥٤,٨ ألف حالة طلاق عام ٢٠٢١م بنسبة ارتفاع قدرها ٥,٩٪.

إن الدول السالف ذكرها جميعها دول عربية مسلمة وهذا يكشف حجم الكارثة التي تهدد الأسرة المسلمة جراء الاستخدام المفرط لتلك المواقع.

٢- الصمت الأسري:

أوجد إدمان الأفراد لمواقع التواصل الاجتماعي حالة من الصمت الأسري، حيث غاب الحوار والنقاش بين أفراد الأسرة الواحدة؛ ما خلق جوًا من الفتور والانعزال سواء بين الوالدين أو الأبناء، حيث تتسبب هذه المواقع في تقليل الحوار البيني التفاعلي بين أفراد الأسرة بنسبة (٦٥,٥٪)، كما أن استخدام

(١) تحقيق بعنوان: (٧ حالات طلاق في المملكة كل ساعة)، صحيفة الوطن السعودية، alwatan.com.sa، بتاريخ ١٧ جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ، الموافق ٢٠ يناير ٢٠٢٢م.

(٢) مقال بـبعنوان: (لماذا تتزايد معدلات الطلاق في الدول العربية؟) على موقع BBC، ٤ أيلول سبتمبر ٢٠٢٢م.

مواقع التواصل الاجتماعي من قِبل الأبناء يؤدي إلى تغيير سلبي في سلوكهم بسبب عزلتهم بنسبة (٦٠٪)[١].

وهذا ما أصاب الأسر عمومًا، فغاب الحوار فيما بينهم كما غاب توجيه الوالدين للأبناء وضعفت استجابة الأبناء لتوجيهات الوالدين، واختفت بشكل كبير الجلسات العائلية التي يجتمع فيها أفراد الأسرة للحديث والضحك وتداول الأفكار ووجهات النظر المختلفة.

٣- غياب القدوة وانحراف الأبناء:

لا شك أن مواقع التواصل الاجتماعي تتَّسع وتنمو بشكل كبير، حيث يتغلب فضاء العالم الافتراضي على ضيق الواقع الذى يقيده الدين والأعراف والعادات والتقاليد، وهذا ما خلق فجوة كبيرة بين ما يشاهده الأبناء على تلك المواقع وما يعيشونه واقعًا على الأرض، حتى أصبحوا يتلقون الكثير من السلوكيات والعادات السلبية من تلك المواقع التي تفتقد الرقابة والسيطرة بشكل كبير، ومن هنا غاب تأثير الوالدين ولم يعودا هما المربي الأول والأساسي لأولادهما، فأصبحنا نعاني من الانحراف السلوكي والعنف وغياب الوازع الديني والأخلاقي لدى الأبناء.

وهذا ما أشار إليه الخبراء الذين كشفوا أن مواقع مثل فيسبوك وتويتر وإنستغرام وتيك توك تسهم بشكل كبير في ارتفاع حالات الإيذاء الجسدي، إذ إن الساعات التي يقضيها المراهق فيها تؤدي إلى خلق فجوة بين الخيال والواقع بما لا يسمح له بالتأقلم مع واقعه بسبب صغر سنه، كما أن عدم تقنين ما يشاهده الأبناء عبر تلك المواقع يسهم بشكل كبير في

(١) رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير من جامعة القاهرة - كلية الإعلام - قسم الإذاعة والتلفزيون، بعنوان: تأثير استخدام تكنولوجيا شبكات التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت على العلاقات الاجتماعية للأسرة المصرية، أعدها هشام البرجي، ٢٠١٥م.

تصدر النماذج السيئة والمنحرفة للمشهد واقتداء الأبناء بهم وهذا يشكل كارثة تهدد بنيان الأسرة والمجتمع.

٤- فساد العقيدة وغياب الهوية:

إن من أخطر الآثار السلبية لوسائل التواصل الاجتماعي والتكنولوجيا الحديثة أنها لامست العقيدة والهوية وأثرت عليهما بشكل مباشر، حيث إنها روجت لأفكار ومعتقدات هدامة، كما أنها تعرض الآراء والمعتقدات المتنوعة والتي قد تكون متناقضة أو مضللة في بعض الأحيان، وهذا قد يؤدي إلى الارتباك والشك في العقائد والمفاهيم الدينية والثقافية، ما قد يعرّض الأفراد للتأثيرات السلبية التي تهدد استقرار عقيدتهم.

وبحسب دراسة أجريت في الكويت تبيّن أن إدمان وسائل التواصل الاجتماعي بين المراهقين مرتبط سلبًا بالدين، كما أظهرت دراسة أخرى أن العلاقة بين التدين ونمط استخدام الإنترنت هي علاقة سلبية[١].

وهذا يقودنا إلى استنتاج يقضي بأن إدمان الإنترنت يقلص من الوازع الديني والأخلاقي خاصة لدى المراهقين والشباب.

كما أن الاستخدام المفرط لوسائل التواصل الاجتماعي يؤدي إلى فقدان الهوية الثقافية والدينية، نظرًا لما يتم مشاهدته عبر تلك المواقع من سلوكيات وممارسات لا تنتمي لقيم مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وهذا يؤدي إلى ضعف الهوية الثقافية والاندماج الضعيف في المجتمع.

ومن المؤكد أن تداول الأخبار الزائفة والمعلومات غير الموثوقة عبر تلك الوسائل يؤدي إلى تشويش الرؤية والتفكير النقدي،

(١) تقرير بعنوان: (إدمان الانترنت ومواقع التواصل يهدد المعتقدات الدينية ويحرض على الالحاد، مخاوف من ظهور ربيع الملحدين ومعتنقي الأفكار الشاذة)، نشره مركز الخليج العربي للدراسات والبحوث، بتاريخ ١٧ آب أغسطس ٢٠٢٣م.

ما يجعل من الصعب على الأشخاص التمييز بين الحقائق والأكاذيب، وهذا يؤثر على فهمهم الصحيح للعقيدة والهوية.

وتشير دراسة إلى أن الانتشار الواسع للأفكار والثقافات المختلفة عبر وسائل التواصل الاجتماعي له آثار خطيرة على عقيدة المجتمع المسلم خاصة مع قلة الوعي لدى أفراد المجتمع بالثقافة الإسلامية، وكذا بالطريقة الصحيحة التي يجب على أفراد المجتمع المسلم اتباعها في التعامل مع تلك الوسائل وما تحتويه من ثقافات وأفكار وسلوكيات مخالفة للهوية الإسلامية[١].

كما توصلت بعض الدراسات إلى أن البلدان التي تتقلص فيها منابر التوعية والتعريف بالانتماء الوطني والديني وغير المشجعة على ممارسة الشعائر وإحياء العادات والتقاليد خاصة لدى فئة الشباب؛ مثل هذه البلدان تصنف كبيئات مرنة لتسلل ظواهر سلبية إلى المجتمع كالإلحاد والعلمانية والمثلية والتحول الجنسي وغيرها من الظواهر الخطيرة والتي عرفت طريقها للعلن عبر تلك المواقع.

كما أن هناك أدلة على تصاعد واضح -في العديد من دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وخاصة بين الشباب- لفئة من يصفون أنفسهم بأنهم "غير متدينين"، وهناك مخاوف من ظهور ما يسمى "ربيع الملحدين ومعتنقي الأفكار الشاذة" في المستقبل، حيث إن الدور الذي يلعبه استخدام الإنترنت والانفتاح التكنولوجي على مستوى المجتمع يسهم في انتشار الإلحاد وفك الارتباط بالإسلام والعقيدة، ومع انتشار هذا الفكر المنحرف يزيد معدل المخاطر التي تهدد العقيدة الإسلامية خاصة تلك المتعلقة بزيادة رصد السلوكيات المضطربة والعدوانية كالانتحار والتنمر مع تصاعد النزعة للعنف والتطرف السلوكي والتشيع والإلحاد.

(١) دراسة حول أثر وسائل التواصل الاجتماعي على عقيدة المسلم، للباحث (محمد علي يحيى الحدادي) جامعة الملك خالد السعودية، نشر البحث في العدد الخامس عشر لمجلة (مجمع) وهي مجلة جامعة المدينة العالمية المحكمة، ojs.mediu.edu.my.

التأثير السلبي
لمواقع التواصل الاجتماعي على الأسرة المسلمة

التأثير المباشر	التأثير غير المباشر
١- ارتفاع نسب الطلاق	١- الإدمان الخفي
٢- الصمت الأسري	٢- العزلة الاجتماعية
٣- غياب القدوة وانحراف الأبناء	٣- الاكتئاب والقلق وضعف التركيز
٤- فساد العقيدة وغياب الهوية	٤- مخاطر خاصة على المرأة

> تشير بعض الدراسات إلى أن البلدان التي تتقلص فيها منابر التوعية والتعريف بالانتماء الوطني والديني تصنف بيئاتٍ مرنة لتسلل ظواهر سلبية إلى المجتمع -خاصةً لدى فئة الشباب- كالإلحاد والعلمانية والمثلية والتحول الجنسي وغيرها من الظواهر الخطيرة

الآثار غير المباشرة للاستخدام المفرط لمواقع التواصل الاجتماعي:

إن ما تحمله مواقع التواصل الاجتماعي من عواصف تهدد كيان الأسرة بشكل عام لا تقتصر كوارثه على ما سبق ذكره من آثار، ولكن تشكل الآثار الخفية وغير المباشرة لها كذلك خطرًا حقيقيًا لا بد من إدراكه والتعامل معه بجدية، لحماية مجتمعاتنا من تبعاته المدمرة.

١- الإدمان الخفي:

إن اعتياد الإنسان العيشَ في عالم وسائل التواصل، والاستخدام المفرط لها يخلق نوعًا من الإدمان الذي يُشبه إدمان الفرد للمخدرات والكحوليات، وهذا ما أثبتته دراسة حديثة حيث أوضحت أن ٤٠٠ مليون شخص في العالم يعانون من ظاهرة الإدمان على استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، واعتبروا أن هذا النوع من الإدمان الجديد أقوى من الإدمان على الخمر أو المخدرات أو التدخين، كما أنه أحد أسباب التوتر والاكتئاب التي قد تؤدي إلى الانتحار[١].

وبات من المعلوم أنَّ «صناعة وسائل التواصل الاجتماعي مصممة حتى يظل المستخدم باقيًا لأطول فترة ممكنة أمامها، وليس هدف تلك المنصات جعل حياة الناس أكثر سعادة، وهذه هي الحقيقة للأسف، وقد نجحت في ذلك»[٢].

وبحسب تحليل أجرته جامعة «كامبريدج» البريطانية فإن نحو نصف المراهقين يشعرون بأنهم مدمنون على وسائل التواصل الاجتماعي[٣].

ولو طبقنا ذلك على الأسرة نجد أن أفرادها يعانون من إدمان تلك المواقع ويغيب تمامًا عن عالمه الواقعي بكل أحداثه وشخوصه، وهنا تنشأ الفجوة بين أفراد الأسرة الواحدة، كما تقل إنتاجية الأفراد ويتأثر روتينهم اليومي ويغيب عنهم الإبداع والتميز وكذا التركيز.

(١) مقال بعنوان: (٤٠٠ مليون مدمن على استخدام مواقع التواصل)، على موقع الجزيرة نت، ١٦ أغسطس ٢٠١٥م

(٢) مقال بعنوان: (مواقع التواصل الاجتماعي أزمة الجيل.. إدمان وعلاج)، للكاتب عمر سامي، على موقع سكاي نيوز عربية، ٧ مارس ٢٠٢٣م.

(٣) مقال بعنوان: (الإدمان على وسائل التواصل الاجتماعي «يغزو» المراهقين)، على صحيفة الشرق الأوسط، aawsat.com، ٣ يناير ٢٠٢٤م.

٢- العزلة الاجتماعية:

فرضت وسائل التواصل الاجتماعي عالمًا افتراضيًا تغيب عنه الحقائق وأحداث الواقع، وجعلته مألوفًا يهرع إليه الناس بشكل دائم هربًا من مشاكل الواقع، ويعيشون الانعزال والوحدة حتى وهُم داخل بيوتهم ووسط ذويهم، مما فرض سياجًا حول كل فرد من أفراد الأسرة الواحدة، وجعل كلاً منهم يعيش في عالمه الخاص به منعزلاً عن أسرته وبالتبعية عن مجتمعه، وهذا ساهم في خلق حالة من الانعزال بين أفراد المجتمع وغابت التجمعات العائلية والمناسبات المجتمعية التي تجمع فئات وطوائف شتى من المجتمع[١].

كما أوضح أن الكثير من الدعاة والموجهين وأصحاب الدراسات النفسية يُحمّلون تلك المواقع العبء الأكبر في ظاهرة الجفاء الأسري وفقر المشاعر والاستغلال العاطفي، والخيانات الزوجية، والانحطاط الأخلاقي في الردود والمناقشات بين المراهقين، وانتزاع سلطة توجيه الأسرة من الوالدين أو المشاركة والمزاحمة في توجيههم وتربيتهم، وكثرة الزخم والغثاء في المواد المعروضة والتي يقابلها ضعف الاختيار وصعوبة التمييز عند أفراد الأسرة وخاصة المراهقين والشباب ما يفاقم المشكلة.

وبالتالي أصبحنا نرى الأبناء يتقوقعون في عالمهم الخاص ولا يتقبلون توجيهات ونصائح الوالدين، ولا يحرصون على المشاركة في التجمعات أو المناسبات العائلية لأنهم اكتفوا بعالم الخيال عن الواقع.

(١) بحث بعنوان: أثر وسائل التواصل الاجتماعي على سلوكيات وقيم الشباب من منظور التربية الإسلامية، نشر في مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد ١٦٩ الجزء الثالث، يوليو ٢٠١٦م.

٣- الاكتئاب والقلق وضعف التركيز:

تؤثر مواقع التواصل الاجتماعي على الحالة النفسية للمستخدمين، حيث إن الفجوة التي تخلقها بين الواقع والعالم الافتراضي تسبب الاضطراب النفسي والقلق وضعف التركيز، وهذا ما توصلت إليه دراسة أجريت عام ٢٠١٦م وشارك فيها ١,٧٨٧ شخصًا تتراوح أعمارهم بين ١٩ و٣٢ عامًا في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى وجود علاقة بين الوقت الذي يقضيه الشخص على مواقع التواصل الاجتماعي يوميًا، وعدد أعراض الاكتئاب التي تظهر عليه[١].

واستنتجت الدراسة أنه كلما زاد عدد الساعات التي يقضيها المرء على هذه المواقع، زاد شعوره باليأس وانعدام الثقة وضعف الهمة.

كما أشارت دراسة أخرى إلى أن كل ساعة إضافية يقضيها الشباب على وسائل التواصل الاجتماعي أو مشاهدة التلفاز تزيد من أعراض الاكتئاب لديهم[٢].

كما توصي الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال الآباء بوضع حدود ثابتة لعدد الساعات التي يقضيها أولادهم في سن المراهقة على الشاشات، وبضرورة عدم تعارض وقت الشاشة مع التمارين اليومية والنوم، وتجنب التعرض للأجهزة أو الشاشة لمدة ساعة واحدة قبل وقت النوم[٣].

ولعل تلك الدراسات تكشف أخطارًا نفسية واجتماعية تصيب الأبناء من الإفراط في استخدام تلك المواقع، وتضع الوالدين أمام مسؤوليتهما الثابتة بالحفاظ على صحة أولادهما

(١) مقال نشرته BBC بعنوان: (هل تصيبك وسائل التواصل الاجتماعي بالاكتئاب أم تخلصك منه؟)، للكاتب أليكس رايلي، ٢٢ فبراير ٢٠١٨م.

(٢) مادة بعنوان: (دراسة جديدة تربط بين مواقع التواصل الاجتماعي وأعراض الاكتئاب بين المراهقين)، على موقع arabic.cnn.com، ٢٣ يوليو ٢٠١٩م.

(٣) مقال بعنوان: (تحذير.. مواقع التواصل الاجتماعي تؤدي إلى اكتئاب المراهقين)، على موقع مصراوي masrawy.com، ٢٣ يوليو ٢٠١٩م.

النفسية وحمايتهم من أي أضرار نفسية تلحق بهم، وأهمها الاستخدام غير المقنن لمواقع التواصل الاجتماعي.

٤- مخاطر خاصة على المرأة:

لا يمكننا أن نغفل أثر تلك المواقع على المرأة تحديدًا، حيث أظهرت دراسة أجريت عام ٢٠٠٩م أن (٨٥٪) من النساء يتعرضن لمضايقات من الأصدقاء والصديقات على الفيسبوك، كما أظهرت النتائج أن (٨٠٪) من النساء تأثرن بعادات وتجارب المشاركات على الفيسبوك، وأن (٨٥٪) منهن أعربن عن الشعور بالضيق من أصدقائهن وصديقاتهن على «الفيسبوك» بنسب مختلفة، وكانت الشكوى من الأصدقاء والصديقات هي أحد أكثر الأمور المزعجة لمستخدمات الفيس بوك بنسبة (٦٣٪)، ثم تبادل الآراء السياسية بنسبة (٤٢٪)، يليها التفاخر والادعاء بعيش حياة هادئة ومثالية بنسبة (٣٢٪).

> **الفجوة التي تحدثها مواقع التواصل الاجتماعي بين الواقع والعالم الافتراضي تسبب الاضطراب النفسي والقلق وضعف التركيز، وثمة علاقة بين الوقت الذي يقضيه الشخص على مواقع التواصل الاجتماعي يوميًا، وعدد أعراض الاكتئاب التي تظهر عليه**

وهذا لا يمنع أن الدراسة كشفت أن (٩١٪) من النساء عبرن عن تقديرهن للدور الاجتماعي الذي تلعبه مواقع التواصل في حياتهن، وتحديدًا إمكانية تبادل ومشاركة الأفكار والآراء[١].

(١) مقال بعنوان: (٨٥٪ من النساء يتعرضن لمضايقات على الفيسبوك)، على موقع عكس السير aksalser.com، ٢ نيسان أبريل ٢٠١١م.

مواجهة واجبة:

لا ينكر أن لمواقع التواصل الاجتماعي آثارًا إيجابية على الأسرة المسلمة، لكن السؤال عن كيفية مواجهة آثارها المهلكة دون أن تنال منا أو من ترابط الأسرة والمجتمع، وهذا ما نحاول طرحه.

١- علاج إدمان مواقع التواصل الاجتماعي:

وهذا من أهم الأولويات، وبحسب بعض الأبحاث فإن نصف المستخدمين لوسائل التواصل الاجتماعي الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٤ يعتقدون أن الامتناع فجأة عن استخدام الشبكات الاجتماعية لشهر ستكون له آثار إيجابية على النوم والعلاقات الاجتماعية الحقيقية[١].

لذا فأول خطوات العلاج هو خفض ساعات استخدام تلك المواقع تدريجيًا، وكذا ينصح الخبراء بغلق إشعارات التطبيقات للتخلص من القلق والاضطراب المرتبط بسماع رنين تلك الإشعارات، وكذا حذف تطبيقات التواصل الاجتماعي من الهواتف المحمولة للتأقلم على غيابها عن النشاط اليومي لأفراد الأسرة.

٢- خلق جو أسري دافئ:

من المهم أن يستعيد أفراد الأسرة روح الحب والحوار فيما بينهم، والترابط الأسري يمكن استعادته من خلال إدراك وجود مشكلة في التواصل بين أفراد الأسرة، يتبع ذلك إرادة أفرادها استعادة الدفء الأسري فيما بينهم، مع ضرورة فتح دوائر أكثر للحوار والمناقشة داخل الأسرة، وكذا تحديد وقت ثابت للاجتماع فيما بينهم والالتزام به، على أن يكون ساعة على الأقل

(١) مقال بعنوان: (أربع نصائح للتخلص من إدمان مواقع التواصل الاجتماعي)، على موقع الجزيرة نت، ٢٩ يوليو ٢٠١٨م.

في اليوم دون هواتف أو مشغلات، مع ضرورة التزام جميع الأفراد بالحضور دون أعذار، حيث إن هذا يعين على استعادة دفء الأسرة من جديد.

٣- سياج من الدين والأخلاق:

ثوابت وأخلاق الإسلام هي السياج الواقي الذي يحافظ على بنيان الأسرة المسلمة من التفكك، لذا فإن من الأولويات المحافظة عليها وعدم تخطيها بأي حال من الأحوال.

ومن تلك الثوابت الحرص على الصلاة، واصطحاب الوالد الأبناء معه للصلاة في المسجد، والبعد عن الاختلاط، وكذا البعد عن أي محتوى يروج لأفكار تخالف تعاليم ديننا الحنيف، وتعزيز خلق الحياء والعفة وغيرهما من الأخلاق الحميدة، كما أنه لا بد أن تكون هناك ضوابط أخلاقية تحكم الأفراد داخل الأسرة ومنها الرضا بالواقع الذي كتبه الله علينا، والاقتداء بالصالحين دون غيرهم، وعدم إهدار الوقت فيما لا يجلب النفع، والأهم هو أن يقوم كل فرد في الأسرة بالدور الذي أوجبه الله عليه دون إفراط أو تفريط، وهذا ما يضمن الحفاظ على البنيان الأسري من الانهيار.

٤- شغل وقت الفراغ:

يعد وقت الفراغ هو المسبب الأساسي لكل انحراف ينال أيًا من أفراد الأسرة، لذا كان لزامًا على الوالدين وكذا الأبناء شغل أوقات فراغهم بكل ما هو مفيد من القراءة وتعلم المهارات واللغات، وكذا تنمية مواهبهم بشكل احترافي، أو ممارسة الرياضة، وأن يكون لكل منهم هدف بَنّاء يسعى لتحقيقه، حتى لا تسرق تلك المواقع الافتراضية أوقاتهم الواقعية الثمينة، وبالتالي أعمارهم دون فائدة، وهذا مما يجب أن تهتم به الأسرة لكي تحافظ على تكاملها.

٥- القدوة الحسنة:

من واجب الوالدين أن يقدما القدوة الحسنة للأبناء حتى يقتدوا بهما دون غيرهما، ومن هنا فمن واجب الوالدين أن يحرصا على التحلي بالأخلاق الحميدة وأن يقدما النموذج الأمثل لأبنائهما، فليس مقبولاً أن ينصح أحد الوالدين أبناءه بسلوك ويأتي بنقيضه، كما أنه ليس مقبولاً أن ينفتح الوالدان على مواقع التواصل الاجتماعي دون رقيب ثم يطلبا من الأبناء الحد من استخدام تلك المواقع.

بدائل بناءة:

إذا كانت مشكلة الإفراط في استخدام وسائل التواصل الاجتماعى تهدد بنيان الأسرة المسلمة فإن الحل الأمثل يتمثل في بناء دعائم للأسرة تساعد على تقوية الروابط بين أفرادها وتخلق جوًا من الدفء والحب يغمرهم جميعًا، حيث إن من واجب الوالدين أن يحرصا على إيجاد جسور التواصل مع الأبناء وذلك بتفعيل الجلسات العائلية التي يقودها رب الأسرة ليتحدث مع أبنائه عن ثوابت دينهم، ويتبادلون النقاش حول ما يواجهونه من مشاكل يومية وكيفية حلها، ويقرؤون القرآن الكريم معًا ويتدبرون آياته، ويتدارسون السيرة النبوية وقصص الصحابة والتابعين، وقطعًا سيكون لتلك الجلسات أثرٌ قويٌ في غرس العقيدة داخل قلوب الأبناء، واستعادة روح الأسرة من جديد، وكذا اصطحاب الأبناء في زيارات عائلية لأهلهم وأقاربهم، والخروج معهم في نزهات ترفيهية، وكذا حثهم على قراءة الكتب النافعة، واكتشاف مواهبهم وتنميتها، وشغل أوقات فراغهم بأعمال نافعة كالمشاركة في الأعمال الخيرية والاجتماعية التي تجعلهم ينغمسون في الواقع ويشعرون بمعاناة غيرهم فيقدرون نعم الله عليهم.

يمكن استعادة الترابط الأسري من خلال الوعي بالمشكلة، ووجود إرادة لدى أفراد الأسرة لاستعادة الدفء الأسري فيما بينهم، مع ضرورة تطبيع الحوار والمناقشة داخل الأسرة، وكذا تحديد وقت ثابت للاجتماع، على أن يكون ساعة على الأقل في اليوم دون قواطع أو مشغلات، مع ضرورة التزام الجميع بالحضور دون أعذار

وختامًا:

فإن وسائل التواصل الاجتماعي ضرورة يتطلبها العصر ولا يمكن الاستغناء عنها، وقد حملت إلى جانب الخير في جنبيها شرورًا عديدة، هدت بشكل مباشر وغير مباشر كيان الأسرة وبالتالي كيان المجتمع ككل، لذا كان من الضروري أن نسجل وقفة نرصد فيها فوائد تلك المواقع لكننا كذلك نسلط الضوء على تأثيرها المدمر على الأسرة بشكل عام والمسلمة بشكل خاص، وندعو الوالدين للعودة سريعًا لدورهما التربوي والقيادي وغرس قيم الدين والأخلاق في الأبناء والأخذ بزمام الأسرة حتى نحافظ على ذلك البنيان المتين والعمل وفق التوجيه الرباني الملهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

توجيه الشريعة الإسلامية لدافع حب الاستطلاع

أ. دانية نديم محمد صفو
ماجستير في التربية الإسلامية - بكالوريوس علم نفس.

حب الاستطلاع دافع جُبلت عليه النفس البشرية، وحُبب لها إشباعه بطرق مختلفة، فجاءت الشريعة الإسلامية لضبطه مِن خلال توضيح مجالات الاستطلاع المشروعة والممنوعة، بحيث يكون إشباعه مشروعًا إذا وُظِّفت نتائجه للخير ووافق المنهج الأخلاقي للتربية الإسلامية، ويكون ممنوعًا إذا وُظِّفت نتائجه للشر، أو خالف الشريعة الإسلامية؛ وهذا المقال لبيان هذه التوجيهات.

مدخل:

أبدع الخالق سبحانه وتعالى في خلق الإنسان في أحسن تقويم، وبما أودع فيه من دوافع متعددة، وبما جعل فيه لتلك الدوافع من أوقات محددة للظهور بما يتناسب مع الحاجة إليها؛ فدافع الخوف مثلاً يظهر إذا تعرض الإنسان للخطر، ويغيب في حال شعوره بالأمان، كما جعل سبحانه لهذه الدوافع مدة معينة لشدتها وعوامل لاستمراريتها، وإذا أمعنا النظر لوجدنا أن دافع حب الاستطلاع لدى الإنسان هو من أسبق الدوافع ظهورًا وأدومه مدة؛ فدافع حبّ الاستطلاع يظهر منذ بداية عهد المولود في هذه الحياة ويستمر معه عبر مراحل النمو كافة، فيحاول أن يعرف أمه ثم أباه ثم المحيطين به، ثم يتفحص كل ما تقع عليه يداه، فيمسك بها يتذوقها؛ لأنَّ التذوق أول وسيلة لمعرفة الأشياء، يتأملها يرميها أرضًا ليكتشف تأثير ذلك فيها، فإذا انكسرت أو أحدثت صوتًا بدا عليه السرور لأنَّه اكتشف حالة جديدة، فإذا كبر ومشى امتدت آفاق حب الاستطلاع لديه إلى عالم أوسع، وكلما ارتقى الفرد في العمر طوّر أساليب بحثه واتجه نحو غايته[١].

هذا هو دافع حُبِّ الاستطلاع الذي دفع بالإنسان عبر مراحل حياته المختلفة إلى الاستزادة من العلم، وهو الذي حفَّزه للاكتشاف والاختراع، وبناء على ذلك يكون هذا الدافع من

(١) علم نفس الطفولة والمراهقة، لأسماء الحسين، ص (١٣٨)، والمدخل إلى علم النفس، لعبد الرحمن عدس ومحيي الدين توق، ص (١٩٨).

الدوافع البنّاءة والمطوّرة للإنسان إذا ما تم إشباعه بالطرق والمجالات المشروعة، التي تعود بالخير والفائدة على الإنسان والمجتمع، وهو أيضًا كالدوافع الأخرى؛ قد يخرج عن المسار وينحرف عن الطريق المستقيم الذي أنعم الله به على عباده المهتدين غير الضالين، فقد يكون هدّامًا عندما يوجّه هذا الدافع في بحثه إلى الشر والإضرار والأذى الذي يصيب الإنسان والمجتمعات.

المطلب الأول: مفهوم حب الاستطلاع ودلالاته:

١. مفهوم حب الاستطلاع لغةً واصطلاحًا:

الاستطلاع لغة هو: التطلّع إلى ما حول الإنسان والتفكير فيه، وأصل الاستطلاع: النظر والتطلُّع إلى الشيء، والطلعة: الرؤية، ويقال: اطّلَعتُ الفجرَ اطّلاعًا أي نظرت إليه حين طلع، والاستطلاع: الفكر، ولكن الفكر يطلق على الاستطلاع مجازًا، تقول: استطلع فلان الأمر واستطلع رأيَ فلانٍ إذا نظر ما عنده وما الذي يظهر إليه من أمره[١].

أما اصطلاحًا: فيعرّف دافع حب الاستطلاع بأنه: مفهوم فرضي، يدل على حالة نفسية داخلية، تدفع الشخص إلى اكتشاف البيئة، وجمع المعلومات، وتحصيل المعرفة، ويعدّ إشباعها ضرورة للصحة النفسية في جميع مراحل العمر[٢].

وتعتبر الحاجة إلى الاكتشاف والاستطلاع من الحاجات التي تدفع الفرد للسلوك من أجل النمو، وهي من قبيل حاجات تحقيق الذات، وليست من الحاجات التي تدفعه للسلوك بسبب وجود نقص أو عوز، وعادة ما يتشابه الناس في دافعية النقص

(١) لسان العرب، لابن منظور، (٢٣٦/٨)، وتاج العروس، للزبيدي (٤٤٢/٥).
(٢) استجابة الوالدين والمشرفين لأسئلة أطفال ما قبل المدرسة، للدكتور حسام هبة، ص (٤٦). وينظر: دافعية حب الاستطلاع، لخيري المغازي عجاج، ص (١٣).

والحرمان، وسلوك الفرد يكون مدفوعًا وموجهًا من أجل خفض التوتر وإنهاء حالة الحرمان الآنية، أما الحاجة إلى الاكتشاف والاستطلاع فإنه من الحاجات المهمة لنمو وتطور الفرد من الناحية النفسية والاجتماعية والعقلية[١].

٢. دلالات مفهوم حب الاستطلاع في القرآن الكريم:

إذا نظرنا في آيات القرآن الكريم نظرةً تحليليةً نجد أنَّ القرآن ذكر بعض المفاهيم التي تشترك في المعنى أحيانًا، وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق أحيانًا أخرى، ومما ورد فيه مصطلحات: النظر والتفكّر والتذكُّر والعلم والعقل، وكل هذه الملَكَات الذهنية عدّها بعض الباحثين متَّفقةً في المدلول مع مفهوم غريزة حب الاستطلاع عند الإنسان، فيرون أن «النظر القاصد في مجالات المعرفة يحرّك العقل لاستكشاف المجهول، وهذه الحركة هي التي يسميها القرآن (تعقلاً)، وإذا عقل الإنسان الأمور حصل له العلم، وهذا العلم لا بدَّ له من وسائل لحفظه، فكان لا بد من التذكر»[٢].

تُعتبر الحاجة إلى الاكتشاف والاستطلاع من الحاجات التي تدفع الفرد للسلوك من أجل النمو، وهي من قبيل حاجات تحقيق الذات، والحاجات المهمة لنمو وتطور الفرد من الناحية النفسية والاجتماعية والعقلية

(١) علم نفس الطفولة والمراهقة، ص (١٣٠).

(٢) منهج القرآن في تهذيب غرائز الإنسان (غريزة حب الاستطلاع)، لأبي بكر علي الصديق، ص (٣٨).

المطلب الثاني: أشكال الاستطلاع في القرآن:

حدَّد القرآن الكريم مجالات التفكُّر -الذي يدفع إلى الاستطلاع- بين المشروع والممنوع، فيكون هذا الدافع مشروعًا إذا وُظِّفت نتائجه للخير، ووافق المنهج الأخلاقي للتربية الإسلامية، ويكون ممنوعًا إذا وُظِّفت نتائجه للشر، أو تجاوز حُدوده، أو خالف الشريعة الإسلامية.

أولاً: الاستطلاع المشروع:

للاستطلاع المشروع مجالات متعددة تناولها القرآن الكريم، من أبرزها:

١- المظاهر الكونية المحيطة بالإنسان:

في هذا المجال نرى كثيرًا من آيات القرآن تدعو الإنسان ليتفكر في آيات الكون، والنظر في أسبابها، وتأمل الغاية منها، ومن الآيات الدالة على ذلك:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إنَّ دافع حبِّ الاستطلاع يدفع الإنسان للبحث عن السر في نشأة هذا الكون، وحتى لا يُتعب الإنسان عقلَه في ذلك التفكير، ويبقى الأمر كذلك سرًا؛ فإننا نجد القرآنَ قد أشبع لهذا الإنسان دافعه عندما بيّن ووضّح قصة الخلق الأول، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ

سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣][١].

ودعا الإنسانَ للاعتبار من آيات الآفاق وتبين الحق من خلالها، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، يقول عز الدين توفيق: إن صيغة الاستقبال في الآية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ تفيد «أن الله تعالى يُري الناسَ آيات جديدة في آيات معروفة، فكل آية معروفة تنطوي على آيات أخرى مجهولة، تنكشف للناس شيئًا فشيئًا، فالأرض آية معروفة، ولكن الآيات المتجددة فيها تنكشف شيئًا فشيئًا، وكذا الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس»[٢]، وهذه المعجزات والاكتشافات الكونية المودَعة في آيات القرآن الكريم لا تنقطع ولا تنفد، فهو عز وجل القائل: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، أي أن ما ورد في القرآن من معلومات علميّة سوف يُكتشف مع مرور الزمن[٣]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

٢- عالم النبات والحيوان:

اهتمَّ القرآن الكريم بتنمية ملكة التفّكر عند الإنسان، فلفت نظره إلى ملاحظة الكائنات حوله والتعرف إليها والتفكر فيها، ليكتشف روعة نظامها ودقة إحكامها التي تدل على الخالق العظيم، فنرى آيات القرآن تعرضُ مسألة خلق النباتات، وأشكالها ومزاياها المختلفة، وأيضًا عالم الحيوانات وتركيباتها

(١) منهج القرآن في تهذيب غرائز الإنسان، ص (٤٩).
(٢) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين توفيق، ص (٥١).
(٣) سلسلة محاضرات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، للدكتور زغلول النجار، موقع مكنون، منشور بتاريخ: ٣٠ يونيو٢٠١٢م.

المختلفة، وأشكالها المتنوعة، ومنافعها وعجائبها، والآيات في هذا المجال كثيرة، سنذكر منها:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦-٦٧]. فهذه الآيات وغيرها كثير تدفع الإنسان وتحثه للاستطلاع والبحث عن خفايا وأسرار هذه المخلوقات العظيمة التي لا تنفد عجائبها، ومن جهة أخرى توجّه عقل الإنسان إلى استخلاص ما أودع الله في الكون من أسرار وطاقات، غير مفتون بها ولا شاعر بأنها خلاصة الحياة وجوهرها الأوحد، فينتفع بثمارها، وهو مالك لأمره منها، غير مستعبد لها ولا منحرف في طريقها[١].

٣- تجارب الأمم السابقة:

فتح القرآن الكريم الباب واسعًا أمام الإنسان ليستطلع أحوال الأمم السابقة عبر ماضيها، وليستنتج من تجاربها أسباب نهضتها أو انهيارها، والمصير الذي آلت إليه، فقد «عرض القرآن الكريم قصصًا كثيرة من الأمم السابقة مثل: عاد، وفرعون، قارون، قوم صالح، قوم لوط... إلخ ليوجه العقل للبحث في الأسباب التي أدت إلى محق هذه الأمم وهلاكها»[٢]،

(١) ينظر: الأدلة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة، للدكتور عبد الكريم نوفان عبيدات، ص (٩٢).

(٢) العقل العربي وإعادة التشكيل، سلسلة كتاب الأمة، لعبد الرحمن الطريري، ص (٨٦-٨٧).

والآيات التي تدعو الإنسان للتفكّر والتبصّر من تجارب الأمم السابقة عديدة، منها:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

ولا شك أنَّ استطلاع الإنسان لتاريخ وتجارب الأمم السابقة، وبيان أحوالها، ومعرفة عواقبهم؛ يفتّح فكر الإنسان ويبصّره بحاضره ومستقبله، إذ إنّ تجاربهم قابلة لأن تتكرر -بحكم تشابه الطبائع البشرية- حين تتشابه الظروف.

٤- النفس الإنسانية:

خاطب القرآن الكريم الإنسان بخطاب خاص يدعوه فيه للنظر والتفكر في نفسه فردًا ونوعًا؛ في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ففي هذه الآية دعوة لكل إنسان أن يتفكر في نفسه فردًا، ويتفكّر في نفسه مقرونًا إلى جيله، ثم يتفكر في نفسه مقرونًا إلى النوع الإنساني كله[١]، وخطابات القرآن الكريم للإنسان بالتفكر في نفسه جاءت على ثلاث مستويات:

المستوى الأول: التفكّر في بدء الإنسان ومنتهاه، وهذا يشمل البشرية كلها منذ وجودها في هذه الأرض وإلى أن ينتهي مصيرها في الآخرة[٢]، فآيات القرآن الكريم فصّلت في أطوار

(١) دليل الأنفس، لمحمد عز الدين توفيق، ص (٥٧).
(٢) المرجع السابق، ص (٥٨).

تخليق الإنسان ليطّلع الإنسان على عظمة خلق الله القدير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

المستوى الثاني: التفكّر في البشرية الحية التي يعيش المتفكر فيها، وينتسب إلى جيلها[١]: ومن ذلك أن جعل القرآن مبدأ الزوجية في خلق الإنسان مجالاً لاستطلاعه وتفكيره، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] «وقوله: (إن في ذلك) يحتمل أن يقال: المراد إن في خلق الأزواج لآيات، ويحتمل أن يقال: في جعل المودة بينهم آيات.

أما الأول: فلا بد له من فكر؛ لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو في خروج الولد من بطن الأم، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضًا؛ لأن الولد لو سُلَّ من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات. وأما الثاني: فكذلك؛ لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة»[٢]. وأيضًا لفت القرآن نظر الإنسان إلى أوجه الاختلاف بين البشر في ألسنتهم وألوانهم وجعل ذلك مادة للدراسة والتأمل، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) منهج القرآن في تهذيب الغرائز، ص (٥٧).

المستوى الثالث: التفكر في نفسه خاصة، والتركيز على أعضاء معينة منه[١]، وهذا واضح من الآيات التي فيها الكلمات الآتية: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ و ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ و ﴿جَعَلَكُمْ﴾ و ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]. يقول سيد قطب -رحمه الله- في الظلال عن آية ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: «وهذه العجائب لا يحصرها كتاب، فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات، والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها، ولكن يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المعروض للأبصار والبصائر، وليقضي رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبُّر»[٢]. كما فصّل القرآن أيضًا في آياته صفات الإنسان النفسية وأنماط سلوكه، وجعلها مادة للتفكّر والاستطلاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والآيات في مجملها وهي تتحدث عن خلق الإنسان وأنماط سلوكه وخصائصه تدعوه إلى التدبر في كل ذلك، والنظر المتفحص المتأني الذي يؤدي إلى قيام الإنسان بواجبه في الحياة، ليصل إلى مبتغاه في الآخرة، وهو ما بين البداية والنهاية مستخلف في الأرض[٣].

(١) دليل الأنفس، ص (٥٧).
(٢) ينظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (٣٣٨٠/٦).
(٣) ينظر: التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم، لعبد الوهاب حنايشة، ص (٢٧).

> صيغة الاستقبال في الآية ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ تفيد أن الله تعالى يُري الناسَ آيات جديدة في آيات معروفة، فكل آية معروفة تنطوي على آيات أخرى مجهولة، تنكشف للناس شيئًا فشيئًا، فالأرض آية معروفة، ولكن الآيات المتجددة فيها تنكشف شيئًا فشيئًا، وكذا الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس
>
> كتاب دليل الأنفس، محمد عز الدين توفيق

ثانيًا: الاستطلاع الممنوع:

دافع حب الاستطلاع له حدود يجب أن يقف الإنسان عندها، ولا يجوز له تخطيها، «وحين يمنعُ الشَّرعُ الخوض في بعض المسائلِ؛ فليس ذلك خوفَ أن يكتشف الناظرُ فيه ما يدلُّ على بطلانه، فذلك محالٌ غيرُ كائن، وإنَّما كان النهيُ عن ذلك لأنَّ حكمة الله عز وجل أنَّه فوق كلِّ ذي علم عليمٌ، فعقولنا لها حدٌّ تنتهي إليه لا تجاوزه قِيدَ شَعرةٍ، ومِنَ الظُّلم البيِّنِ أن تُكلِّفَ عقلكَ فوق طاقته، ففيه إهدارٌ لطاقته»[١].

ولضبط وتهذيب دافع حب الاستطلاع أوضح القرآن الكريم الجوانب التي ينبغي للمسلم أن يطلق لعقله العنان للتفكر والبحث فيها وهي كثيرة كما مر معنا. في حين نهاه عن الخوض في أمور أخرى، كما سيأتي:

١. التفكير بالغيبيات:

فلا يجوز للإنسان أن يعمل عقله في الغيبيات التي لم يجعل الله له سبيلاً للاطلاع عليها، ولو حاول الإنسان التعمق فيها

(١) ممنوع التفكير، لمحمود عبد الجليل روزن، موقع الألوكة، https://www.alukah.net/culture/٠/٦٤٥٤٧/.

أكثر مما أخبر الله عنها لقاده عقله للحيرة والشك، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] « يبدأ الإسلام التربية العقلية بتحديد مجال النظر العقلي»[(١)].

وكذلك نهى الإسلام عن التعامل مع النجوم (التنجيم) بدعوى معرفة مستقبل الناس عبر علاقتهم بالنجوم؛ فمعرفة الأمور المستقبلية من اختصاص الله استأثر به وتفرّد بعلمه، وحجب أسراره عن الخلائق، وهذا ما تقرّره الكثير من الآيات، حتى إن الله تعالى أمر الأنبياء عليهم السلام أن ينفوا ذلك عن أنفسهم، وقال تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١][(٢)].

٢. التفكير بالذات الإلهية:

إن أعظم أنواع الغيب وأبعدها عن إدراك الإنسان العلم بحقيقة الذات الإلهية المقدسة وكنهها، فإذا كان الإنسان لا يعرف إلا القليل القليل عن دماغه وجهازه العصبي الذي صار به إنساناً، ولم يتوصل إلى حقيقة عقله وروحه ونفسه فهي أسرار مغلقة وكنوز مخفية، فإن كانت هذه حدود الإنسان في دنياه فكيف يجرؤ على التفكير فيمن ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ومن لا

(١) ينظر: منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب (٧٧/١).

(٢) هذا لا يتنافى مع توقع ما سوف يحصل في المستقبل القريب تماشيًا مع السنن الكونية والكشوفات العلمية المبنية على الأدلة، مثل توقع حالة الطقس أو اقتراب حصول بعض الظواهر الكونية كالأعاصير والزلازل.

يحده الزمان وهو الذي خلق الزمان[١]، قال الله تعالى: ﴿يَعلَمُ ما بَينَ أَيديهِم وَما خَلفَهُم وَلا يُحيطونَ بِهِ عِلمًا﴾ [طه: ١١٠].

لذا عندما خرج ابن عباس رضي الله عنهما على أصحابه ووجدهم يتفكرون في الله تعالى، قال لهم: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله»[٢]، يقول محمد قطب -رحمه الله- تحت عنوان «لا تفكّروا في ذات الله»: «لا يكلِّف الله نفسًا إلا وسعها.. إنَّ الله لم يكلّف الناس أن يبحثوا في ذاته سبحانه، ولم يكلفهم الجهد الذي يعلم سبحانه أنهم لن يقدروا عليه قط، وأن قصارى ما يحدث لهم حين يحاولون أن تنفجر طاقتهم وتتبدد، كما تنفجر طاقة الذرة التي انحرفت عن مسارها، فتتحطم وتحطم ما تلقاه في الطريق! وحين نهى الرسول الكريم ﷺ أتباعه عن أن يفكروا في ذات الله كيلا يهلكوا، لم يكن ﷺ يحجر على تفكيرهم أو يضع عليهم القيود، كلا! إنما كان يوفر جهدهم للنافع من الأعمال، كان يصون هذا الجهد من أن يتبدَّد سُدى، ويؤدِّي إلى الضلال»[٣].

٣. التفكّر في حقيقة الروح:

ومن الأمور التي لا تندرج في مجال حُب الاستطلاع المرغوب: الروح، وهذا رسول الله ﷺ المؤيَّد بالوحي من ربه عندما سأله اليهود عن الروح، امتنع عن الإجابة إلى أن نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][٤] فالروح شأن من شؤون الله، استأثر الله بعلمها، وقد بيّن تعالى في الآيات أن نفخ الروح وقع على البشر بعد الخلق، ولكنه لم يعطِ تفاصيل هذه الروح، وذلك أنَّ أدوات الوصول للمعرفة عند الإنسان الحس والعقل

(١) التفكر من المشاهدة إلى الشهود، لمالك البدري، ص (٧٦).
(٢) أخرجه البيهقي الأسماء والصفات (٦١٨).
(٣) قبسات من الرسول صلى الله عليه وسلم، لمحمد قطب، ص (٣٨).
(٤) أخرجه البخاري (٧٢٩٧).

والتجريب، ولهذا فلن يتسنى للإنسان إدراك ما هو غير مادي كالروح، ومن ثم يؤكد الله في قوله: ﴿وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا﴾ عدم علم أحد بها أي: أنَّ علم الإنسان سيظلُّ قاصرًا عن إدراك هذه الحقيقة وسيظل بينهما مسافات طويلة[١].

٤. استطلاع أخبار وعورات الآخرين:

قد يدفع دافع حب الاستطلاع صاحبه لاستجلاب أخبار الآخرين وتتبعها بما لا تدعو إليه حاجة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولم يقتصر الأمر على تتبع أخبار وعورات الآخرين دون علمهم، بل قد شمل حتى سؤالهم عنها بما يسبب لهم الحرج والضيق، وقد أشار الرسول إلى ذلك المعنى بقوله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[٢]، قال الإمام النووي رحمه الله: «وكان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف المنهي عنه..، وقيل: يحتمل أن المراد كثرة سؤال الإنسان عن حاله وتفاصيل أمره، فيدخل ذلك في سؤاله عما لا يعنيه، ويتضمن ذلك حصول الحرج في حق المسؤول، فإنه قد لا يُؤْثر إخباره بأحواله، فإن أخبره شق عليه، وإن كذبه في الإخبار أو تكلف التعريض لَحِقَتْهُ المشقة، وإن أهمل جوابه ارتكب سوء الأدب»[٣].

ومن الاستطلاع المذموم أيضًا النظر والتطلع إلى عورات الآخرين، وفي هذا الشأن فصّل القرآن الكريم تفصيلاً واسعًا ووضع حدودًا للحِفاظِ على حقوق الغير، فأوجب الاستئذان لدخول بيوت الآخرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا

(١) تفسير الشعراوي (الخواطر) (٨٧٢٣/١٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٧١) وقال: غريب. وابن ماجه (٣٩٧٦).
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١١/١١).

بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، وأشد ذلك الخوض في الأعراض حديثًا وتتبعًا.

من أشكال الاستطلاع العبثي: ما عمت به البلوى من متابعة التوافه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وتضييع الأوقات في تتبع الماجريات، فالتمادي في ذلك يؤدي إلى سطحية التفكير والهبوط بالفكر وتضييع الأوقات وإضعاف الهمة، ثم الاستهانة بحرمات الله وتدنيس القلب بالمعاصي

٥. استطلاع ما لا ينفع (الاستطلاع العبثي):

إنَّ عناية الإسلام بدافع الاستطلاع إنما يعود إلى اهتمامه بثمرة هذا الاستطلاع، لذا فالاستطلاع ليس غاية بحد ذاته بل هو وسيلة لدفع الإنسان لتحصيل المعارف النافعة التي تسهم في تقدمه وتطوره، وتتناسب مع دوره خليفة لله تعالى في هذه الأرض، ومن هنا حرص الإسلام على أن يوجه المسلمُ تفكيرَه لما ينفعه ويعود عليه بالخير، قال رسول الله ﷺ: (احرص على ما ينفعك)[١]، ونهى عن الخوض فيما لا يعود على الإنسان بالنفع حتى وإن لم يلحق به ضرر لأنَّ هذا ضرب من العبث واللهو، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣] «وبذلك يكون الإنسان منذ نشأته إلى رجعته إلى توفيته الجزاء يوم الجزاء قائمًا بالحق في كل مرحلة، محاطًا بالحق في كل خطوة، لا باطل في خلقته، ولا عبث ولا لهو ولا انحراف»[٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب، ص (٨١).

وأيضًا من أشكال هذا النوع من الاستطلاع ما عمت به البلوى من متابعة التوافه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وتضييع الأوقات في تتبع الماجريات، فالتمادي في ذلك يؤدي إلى سطحية التفكير والهبوط بالفكر وتضيع الأوقات وإضعاف الهمة، ثم الاستهانة بحرمات الله وتدنيس القلب بالمعاصي.

٦. استطلاع ما يبعث على التشويش الفكري واضطراب المفاهيم:

تحرص فلسفة التربية الإسلامية على معرفة كل ما من شأنه أن يعود على الفرد –والناشئ بوجه أخص- بالنفع والثمرة المعرفية أو الروحية أو الجسمية أو الاجتماعية... إلخ، وفي مقابل ذلك نهاه عن استطلاع ما قد يقود إلى التشويش الفكري أو التلوث المعرفي حين يسعى لمعرفة ما لا قدرة له على استيعابه، فيرتد عليه سلبًا من حيث التشويش الفكري واضطراب المفاهيم، وذلك على خلاف من يأنس القدرة على مطالعة ذلك بعد تأهيله ومعرفة أسس ما يطالعه وحيثياته، حتى إذا اطلع عليه لم يقع في ذلك المنزلق المحظور، ومن هذا القبيل ما ثبت في نهي النبي ﷺ عن معرفة ما ورد في كتب اليهود والنصارى (التوراة والإنجيل) -على سبيل المثال- ومثلها كل ما يعرّض المسلم للتشوش (الاضطراب الفكري للمفاهيم) وهو جميعه من قبيل الأمن الفكري الذي تحرص فلسفة التربية الإسلامية على حمايته، ولكنها في الوقت ذاته لا تمانع –بل تدفع- المؤهلين لمطالعة تلك الكتب ونقدها والرد عليها إن استلزم الأمر ذلك، وثمة تخصص اليوم يعرف بمقارنة الأديان وأنّى للمتخصص فيه من النأي بنفسه عن مطالعة مثل تلك المصادر وما في حكمها؟!

ولذا ذهب العلماء إلى أن على المسلم أن يُعرض عن مطالعة كتب اليهود والنصارى حتى لا يُفتن بما أدخل فيهما من الباطل، وحتى لا يشغل نفسه بما لا ينفعه، مع جواز مطالعتهما

للراسخين في العلم لمن يستعملون هذه الكتب في مجادلة اليهود والنصارى وإقامة الحجة عليهم[١]، ومثل ذلك التعرض للشبهات عمومًا لمن لا يُحسن التعامل معها والرد عليها، لاسيما في هذا العصر حيث كثرت الشبهات وكثرت وسائل نشرها؛ فإنها إن تمكنت من القلب أفسدته، كما قال ﷺ: (تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشرِبها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أَنْكَرها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيضَ مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب مِن هواه)[٢].

> «حين يمنعُ الشَّرعُ الخوض في بعض المسائلِ؛ فليس ذلك خوفَ أن يكتشف الناظرُ فيه ما يدلُّ على بطلانه، فذلك محالٌ غيرُ كائنٍ، وإنَّما كان النهيُ عن ذلك لأنَّ حكمة اللهِ عز وجل أنَّه فوق كلِّ ذي علم عليمٌ، فعقولنا لها حدٌّ تنتهي إليه لا تجاوزه قِيدَ شَعرةٍ، ومِنَ الظُلم البيِّنِ أن تُكلِّفَ عقلكَ فوق طاقته، ففيه إهدارٌ لطاقته»
>
> كتاب ممنوع التفكير، لمحمود عبد الجليل روزن

(١) حكم مطالعة كتب أهل الكتاب من أجل الدعوة، محمد صالح المنجد، موقع الإسلام سؤال وجواب، تاريخ النشر ٢٠١٤/٦/٣٠م.
(٢) أخرجه مسلم (١٤٤).

خاتمة:

نستخلص مما سبق عرضه من أنواع الاستطلاع (المشروع والممنوع) أن الله سبحانه وتعالى فتح لنا من خلال كتابه العظيم، وسنة نبيه الكريم ﷺ أبواب الاستطلاع في الأمور التي تعود علينا وعلى مجتمعاتنا بالخير بما يساهم في أداء الأدوار المطلوبة لعبادته سبحانه وتعالى، بمفهوم العبادة الشامل المتضمن إعمار أرضه والقيام بدور الاستخلاف عليها من قبل الإنسان، وفي المقابل أغلق عنا أبواب الاستطلاع في الأمور التي تجلب الشر والفساد والهلاك للإنسان ومجتمعه.

النظام الغذائي في الإسلام وآثاره الصحّية والسلوكية

أ. ياسين فيصل المشعان

ماجستير في المناهج وطرق التدريس، رئيس الأكاديمية السورية لرياضات قوة الرمي والدفاع عن النفس.

الدين الإسلامي نظام حياةٍ متكامل، يلبّي حاجات الإنسان الروحية والعاطفية والنفسية والجسدية، ولا يهمل جانبًا على حساب جانب، ولو تأمَّلنا النظام الغذائي الدقيق الذي رسمه؛ لوجدنا توازنًا لا نجده في تشريعٍ آخر، وللمسنا آثاره الصحية على الفرد والمجتمع من حوله، مع ما فيه من مراعاة للآداب الاجتماعية العامّة، وهو -مع ذلك- ليس نظامًا غذائيًا تفصيليًا؛ بل تشريعٌ فيه قواعد عامةً لتنظيم الحياة.

مدخل:

لم يقتصر الدين الإسلامي على الجانب الروحي فقط، بل راعى جميع الجوانب التي تمسّ الإنسان ومنها الجانب البدني، فحرص على سلامة البدن من حيث النظافة والاهتمام بالصحّة والتغذية السليمة؛ حتى جعل في إطعام النفس أجرًا؛ قال رسول اللهِ ﷺ: (ما أَطعَمتَ نفسَكَ فهو لكَ صَدَقَةٌ)[1]. وجاءت كثيرٌ من الأدلة التي تحثُّ على التغذية الصحيحة من حيث الكمّ والنوع والكيفية والمصدر والطريقة.

الغذاء في الإسلام:

للغذاء في الإسلام نظام دقيق ينطلق من التصوّر الشرعي للكون والحياة، ومتوازن بين الحقوق والواجبات، وحاجات الجسد والروح، والمباحات والممنوعات، وله ضوابط دقيقة تراعي ذلك كلّه، ومنها:

١- الأمر بالسعي وطلب الرزق:

وذلك لإعفاف المرءِ نفسَه، وكفاية مَن يعول، كما أنّ في العمل تحريكًا لعجلة الاقتصاد بما يعود بالنفع على المجتمع كافّة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال ﷺ: (ما أكَلَ أحدٌ

(١) أخرجه أحمد (١٧١٧٩).

طعامًا قط خيرًا مِن أن يأكلَ مِن عمل يده)[١]، وقال ﷺ: (لَأن يأخُذَ أحدُكُم حبلَهُ فيأتِيَ بحزمَةِ الحطبِ على ظهرِه فيبيعَها فيَكُفَّ اللهُ بها وجهَهُ، خيرٌ له مِن أن يسأَلَ الناسَ، أَعطَوهُ أو مَنَعُوهُ)[٢].

٢- الأصل في الأطعمة هو الحلّ:

فالأصل في الأطعمة هو الإباحة ما لم يدل دليل على التحريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وهذا يفتح الآفاق أمام الإنسان في التقدم في مجالات الصناعة الغذائية مما يعود بالنفع على التقدم العلمي والرخاء للبشرية.

٣- ضرورة أن يكون غذاء المسلم طيّبًا من حيث الكسب والنوع:

فلا بد أن يكون نوع الغذاء حلالاً ومن كسب حلال، قال رسول الله ﷺ: (أيها الناسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يقبلُ إلا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ به المرسَلينَ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكرَ الرجلَ يُطِيلُ السفرَ، أشعَثَ أغبَرَ يَمُدُّ يديهِ إلى السماء: يا رَبِّ يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسُهُ حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلكَ)[٣].

ويكون طيّبًا من حيث نوعه فلا يكون محرمًا؛ والمحرّم بجانب الحلال محدود، ومن أنواع الأطعمة المحرّمة:

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٧١).
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥).

» **الدم:** فمن الناحية الصحّية هو حامل لفضلات الجسم، وبيئة مناسبة لنمو الجراثيم وتكاثرها، ويحوي كمّية كبيرة من حمض البوليك وهو مادة سامّة تضرّ بالصحّة، عدا عن ندرة العناصر الغذائية فيه، وفيه تقوية للنفس الشهوانية الغضبية، قال ابن تيمية: «حرم الدم المسفوح لأنّه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية؛ وزيادته توجب طغيان هذه القوى»[١].

» **الميتة:** وهي التي لم تذكّ ذكاة شرعية صحيحة. وما يوجد في الدم من أضرار يوجد في الميتة وزيادة. فعند موت الحيوان يتسمم اللحم كلّه نتيجة سريان حمض البوليك في أنحائه[٢].

» **الخنزير:** ذكرت الآية أنّه رجس، فالخنزير يجمع أنواع القذارة في جسمه وطبعه، وهو بيئة مناسبة لكثير من الأمراض والأوبئة، والأكل من لحم الخنزير يسبّب انتقال الأمراض والأوبئة إلى الإنسان، وكذلك يتأثر الإنسان بطبعه السيء «فإنْ بُني جسم الإنسان من هذا اللحم المشبّع بالطباع الخبيثة أنتج سلوكيات خبيثة غير إرادية مشتقّة من طباع الخنزير، الذي أصبح جزءًا من تركيبة جسده الأساسية»[٣].

» **ما ذُبِح تقرّبًا لغير الله:** وخطورة الأكل مما ذبح لغير الله عَقَدية، فالأكل منه دليلٌ على موافقة الآكل للذابِحِ في معتقده وإقراره عليه.

» **الحيوانات المفترسة:** جاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ (نَهَى عَن كُلِّ ذِي نابٍ مِنَ السِّباعِ، وعَن كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطيرِ)[٤]، قال ابن القيم: «وكلُّ مَن ألف ضربًا مِن ضروب

(١) مجموع الفتاوى (١٧٩/١٧).
(٢) الطب الوقائي في القرآن الكريم، لخليل قدور، ص (٩٥).
(٣) دور الغذاء في السلوك الإنساني من منظور إسلامي، لخولة حسن، ص (٨٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٩٣٤).

هذه الحيوانات اكتسب مِن طبعه وخُلُقه، فإن تغذَّى بلحمه كان الشّبه أقوى، فإنَّ الغاذي شبيهٌ بالمغتذي، ولهذا حرّم الله أكل لحوم السِّباع وجوارح الطَّير لِما تورث آكِلَها مِن شبه نفوسها بها، والله أعلم»[1].

» **المسكرات والمخدّرات وكلّ ما يضرّ بالعقل:** قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وعَن عبدِالله بنِ عَمرو رضي الله عنهما، أَنَّ النبي ﷺ قال: (ما أَسْكَرَ كثيرُهُ فقليلُهُ حرامٌ)[2]. وعدا عن الانحراف الأخلاقي والقيمي، والتقصير في الجانب الشرعي؛ «فقد أكّدت البحوث العلمية أنّ تناول الخمر يؤدّي إلى العديد من الأضرار لصحّة الإنسان، إذ ينتج عن تمثيل الكحول داخل الجسم إنتاج مواد كيماوية تضرّ بالدماغ والعضلات والكلى والكبد والقلب، هذا بالإضافة إلى المشكلات والأضرار الاقتصادية والاجتماعية والجمالية»[3].

» **ما ثبت ضرره على الجسم:** فعن عُبادَةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللهِ ﷺ (قَضَى أَنْ لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ)[4]؛ وقد أثبت العلم في الغالب ضرر كلّ ما حرّمه الشرع سواء عُلمت الحكمة مِن تحريمه أو لم تُعلم، فإنّ الله عز وجل لا يبيح إلا الطيب ولا يحرّم إلا الخبيث.

٤- تنويع مصادر الغذاء:

علميًّا فإنّ أنواع الغذاء متعدّدة، والعناصر الغذائية الرئيسية التي يحتاجها جسم الإنسان هي:

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١٠/٢).
(٢) أخرجه أحمد (٦٥٥٨).
(٣) الغذاء في القرآن الكريم من منظور علم التغذية الحديث، لعزت فارس، ص (٢٣٢).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠).

١. **الماء:** فهو ضروري للجسم، ويشكّل الدعامة الرئيسة لحياة الإنسان وبقائه.

٢. **الكربوهيدرات:** وهي المصدر الرئيس للطاقة في غذاء الإنسان.

٣. **الدهون:** التي تزوّد الجسم بالطاقة الحرارية، وتدخل في بناء الخلايا وتركيبها.

٤. **البروتينات:** التي تقوم بدور مهمّ في بناء الأنسجة وصيانتها، وفي تجديد التالف منها.

٥. **الفيتامينات:** وهي ضرورية لصيانة الجسم ونموه ووقايته من الأمراض.

٦. **العناصر المعدنية:** التي تقوم بدور مهم في تنشيط التفاعلات الحيوية.

ومع أنّ الشرع لم يُحدد طريقة أو أنواعًا معينة للتغذية، لكن يُلحظ أنّه ورد في النصوص الشرعية ما يشير إلى عدد من الأغذية بالامتنان بها، أو ما فيها من خير وبركة، ولا شكّ أنّ لهذه الأطعمة ما يميّزها عن غيرها، فقد ثبتت بركتها وفوائدها الغذائية والعلاجية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ. **اللبن (الحليب):** قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، «يحتوي لبن الحيوانات على فيتامينات: أ، ب، جـ وفيتامينات أخرى، كما يحتوي على أملاح الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والمنغنيز والنحاس والفسفور والكبريت والكلور، ويوجد في

اللبن أيضًا: البروتينات والسكريات والدهون، وهذه المكونات تجعل اللبن غذاء كاملاً ودواء لكثير من الأمراض»[١].

ب. **العسل:** ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. «يتألف قوام العسل من البروتين والسكاكر، ومن الحديد والنحاس والمنغنيز، ... كما أنّ احتواءه على الفوسفور يجعله غذاء ضروريًّا للمفكّرين والعاملين بأدمغتهم، والشيوخ الضعفاء»[٢].

ج. **التمر:** قال رسول اللهِ ﷺ: (بيتٌ لا تَمرَ فيهِ جِياعٌ أهلُهُ)[٣]. والتمر فيه: «نسبة كبيرة من السكريات (سكر الفواكه) وفيتامين أ، والأملاح المعدنية مثل الصوديوم والكالسيوم والمنغنيز والحديد والنحاس والفوسفور والكبريت، كما توجد أيضًا الدهون والبروتينات، وفيتامين ب١، وب٢، وحامض النيكوتين. وثمرة البلح دواء صالح للأمراض، نافع لكثير من العلل»[٤].

د. **الزيتون:** عَن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: (كلوا الزيتَ وادَّهِنوا بهِ؛ فإنه مِن شجرةٍ مباركةٍ)[٥]. والزيتون يحتوي «نسبًا متوازنةً ومتناسبة من الأحماض الدهنية وفيتامين (هـ) والمركبات العضوية غير الغذائية كالفينولات المتعددة وغيرها من المركبات العضوية النافعة للصحة»[٦]، ولأهميته وكثرة فوائده اهتمت مراكز عالمية بدراسته.

(١) الغذاء كعلاج ودواء للإنسان، للدكتور محمد هاشم، ص (٥٥).
(٢) الغذاء لا الدواء، للدكتور صبري القباني، ص (٣٥١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤٦).
(٤) الغذاء كعلاج ودواء للإنسان، ص (١١).
(٥) أخرجه الترمذي (١٨٥١)، وابن ماجه بلفظ (ائْتَدِمُوا بالزيتِ) (٣٣١٩).
(٦) الغذاء في القرآن الكريم من منظور علم التغذية الحديث، لعزت فارس، ص (١٠٠).

هـ. **السمك:** قال رسول اللهِ ﷺ: (أُحِلَّتْ لنا مَيتَتانِ ودَمانِ، فأما الميتَتانِ: فالحوتُ والجرادُ، وأما الدَّمانِ: فالكبدُ والطحالُ)[1].
و«بروتينات الأسماك تعتبر من الدرجة الأولى، وهي أسهل هضمًا من بروتينات اللحم، كما أنّها غنيّة جدًا في محتواها من الفوسفور وهو ذلك العنصر اللازم للأعصاب والمخ والعظام، ومن هنا نشأ الاعتقاد بأنّ الأسماك «طعام المخ» ويمتلك السمك مقدارًا مرموقًا من المواد الدهنية»[2].

و. **اللحم:** ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥][3]، واللحوم عليها العمدة في تزويد الجسم بالبروتين اللازم لبناء الأجسام وتعويض الأنسجة التالفة، والعديد من المواد المفيدة الأخرى كالمعادن والفيتامينات والدهون.

> **للغذاء في الإسلام نظام دقيق ينطلق من التصوّر الشرعي للكون والحياة، ومتوازن بين الحقوق والواجبات، وحاجات الجسد والروح، والمباحات والممنوعات، وله ضوابط دقيقة تراعي ذلك كلّه**

كيفية تناول الطعام والشراب وأثر الآداب في بركتهما:

جاءت النصوص الشرعية بآداب متكاملة في كيفية تناول الطعام والشراب، والأساس الأهمّ في التزامها هو التعبّد واتباع أمر الشرع، لكن يلحظ في هذه الآداب آثارها الصحية على الفرد

(١) أخرجه أحمد (٥٧٢٣)، وابن ماجه (٣٣١٤).
(٢) الغذاء كعلاج ودواء للإنسان، ص (٦٣).
(٣) من الانحرافات الفكرية المعاصرة: الامتناع عن أكل اللحم اعتقادًا بأن ذبحها ظلم، أو تحريمًا لها على النفس، وهي من نتاج الأفكار الإلحادية المعاصرة، أما من ترك اللحم تخفيفًا أو لعدم استساغته أو ... فهذا جائز.

نفسه والمجتمع من حوله، كما أنّ فيها تهذيبًا للسلوك الشخصي، ومراعاة للآداب الاجتماعية العامّة، ومن أهم هذه الآداب:

١. **نية التقوّي على الطاعة:** إنّ نيّة المرء بالتقوّي بالطعام على طاعة الله تجعل المرء يثاب على طعامه وشرابه؛ قال رسول اللهِ ﷺ: (إنما الأعمالُ بالنياتِ، وإنما لكل امرِئ ما نوى)[١]، فالنيّة تحوّل المباح إلى طاعة.

٢. **غسل اليدين قبل الطعام وبعده:** عَن سَلمانَ رضي الله عنه قال: قرأت في التوراة أن بركة الطعام الوضوء قبله، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: (بركة الطعام الوضوء قبله، والوضوء بعده)[٢].

٣. **التسمية في أوّله، والأكل والشرب باليمين، والأكل مما يلي المرء:** قال عمرُ بنُ أبي سَلَمَةَ رضي الله عنهما: «كنت غلامًا في حَجْرِ رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيشُ في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: (يا غلام، سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك). فما زالت تلك طِعمتي بعدُ»[٣]. فإن نسي التسمية في أوله فيقولها عند تذكرها؛ فعَن عائِشةَ رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعامًا في ستة نَفَرٍ مِن أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال رسول الله ﷺ: (أما إنه لو كان قال: بسم الله، لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: بسم الله، فإن نسي أن يقول: بسم الله في أوله، فليقل: بسم الله في أوله وآخره)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٦١)، والترمذي (١٨٤٦)، وأحمد (٢٣٧٣٢) والحديث ضعيف، والوضوء في هذا الحديث بمعنى غسل اليدين، قال شيخ الإسلام: «الوضوء في كلام رسولنا صلى الله عليه وسلم لم يرد به قط إلا وضوء الصلاة، وإنما ورد بذلك المعنى في لغة اليهود... وقد أَجَابَ سلمانَ باللُّغةِ التي خاطبهُ بهَا، لغةِ أهلِ التوراةِ» الفتاوى الكبرى: (٢٩٨/١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧٦).

(٤) ابن ماجه (٣٢٦٤)، وأحمد (٢٥١٠٦).

لمحات من فقه الطعام في الإسلام

- ضرورة الانضباط في كيفية ذبح الحيوان
- العناية الكبيرة بالصوم
- ضرورة الاعتدال في الأكل والشرب وعدم الإسراف
- التنبه للآثار النفسية والسلوكية التي تسببها الأطعمة

وقال النبي ﷺ: (البركة تنزل وسط الطعام، فكلوا مِن حافَتيه، ولا تأكلوا مِن وسطه)[١].

٤. **الأكل والشرب قاعدًا:** عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه (نهى أن يشرب الرجل قائمًا). قال قتادة: فقلنا: فالأكل؟ فقال: ذاك أشر أو أخبث»[٢].

٥. **وكذلك عدم الأكل متكئًا:** قال رسول اللهِ ﷺ: (لا آكُلُ مُتَّكِئًا)[٣].

٦. **عدم النفخ في الطعام والشراب:** (نهى رسول اللهِ ﷺ عَنِ النَّفخِ في الطعامِ والشرابِ)[٤].

(١) أخرجه الترمذي (١٨٠٥)، وأحمد (٢٧٣٠) بمعناه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٩٨).
(٤) أخرجه أحمد (٢٨١٧).

٧. **ترك الطعام حتى تذهب شدّة حرارته:** فعَن أسماءَ بنتِ أَبي بكر رضي الله عنهما: أنها كانت إذا ثَرَدَت غطته شيئًا حتى يذهب فَوره، ثم تقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنه أعظم للبركة)[١].

٨. **لعق الأصابع وعدم ترك اللقمة الساقطة:** قال رسول اللهِ ﷺ: (إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها، فليُمِطْ ما كان بها مِن أذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة)[٢].

٩. **عدم عيب الطعام:** (ما عاب النبي ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه)[٣].

١٠. **الحمد بعد الطعام:** (كان ﷺ إذا رفع مائدته قال: الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّع ولا مستغنى عنه، ربنا)[٤].

١١. **يكون الشرب على دفعات:** عَن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ (كان يَتَنَفَّسُ في الإناءِ ثلاثًا)[٥]، أي يشرب ثم يفصل فمه عن الإناء ثم يشرب ثانية ثم يفصل فمه ثم يشرب ثالثة. أي يتنفس خارج الإناء. ولا يتنفس في الإناء: قال رسول اللهِ ﷺ: (إذا شَرِبَ أَحدُكُم فلا يَتَنَفَّسْ في الإناءِ)[٦]. أي لا ينفخ داخل الإناء.

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٣).
(٤) أخرجه البخاري (٥٤٥٨).
(٥) أخرجه البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٢٠٢٨) واللفظ له.
(٦) أخرجه البخاري (١٥٣)، ومسلم (٢٦٧).

١٢. **عدم الشربِ من فم السقاء:** (نهى رسول الله ﷺ عن الشرب مِن فَمِ القِرْبَة أو السِّقاء)[١].

لم يكد يمرّ أدب من آداب الطعام أو الشراب إلا ورافق هذا الأدب ذكر البركة في الطعام صراحة أو ضمنًا؛ فالحفاظ على الآداب فيه قربة لله عز وجل، وكذلك فيه بركة للطعام، وزيادة على ذلك هو أدب ميّز الإسلام عن غيره من عادات الأمم والشعوب.

جاءت النصوص الشرعية بآداب متكاملة في كيفية تناول الطعام والشراب، والأساس الأهمّ في التزامها هو التعبّد واتباع أمر الشرع، لكن يُلحظ في هذه الآداب آثارُها الصحية على الفرد نفسه والمجتمع من حوله، كما أنّ فيها تهذيبًا للسلوك الشخصي، ومراعاةً للآداب الاجتماعية العامّة

لمحات من فقه الطعام:

أثر كيفية ذبح الحيوان على لحمه:

لا بدّ من ذبح الحيوان بطريقة صحيحة، وهذه الطريقة لها فوائد، من أهمّها: إخراج الدم من جسم الذبيحة، والإحسان في ذبح الحيوان بإراحته والرفق به وعدم تعذيبه، عن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: (إن الله كتب الإحسان على كلِ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرَته، فلَيُرِح ذبيحته)[٢]. وهنا حكمة في إراحة الذبيحة وحدّ السكين، «إنّ إراحة الحيوان قبل الذبح أمر ضروري للحصول على لحم ذي

(١) أخرجه البخاري (٥٦٢٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

طعم مستساغ، حيث يتحول الجلايكوجين الموجود في العضلات بعد ذبح الحيوان إلى حامض اللاكتيك، والذي يقوم بدوره بحفظ اللحم، وكذلك يعمل على تطرية اللحم، وفي حالة تعرض الحيوان للإجهاد قبل الذبح فإنّه سيؤدي إلى استنفاذ كمية الجلايكوجين، ومن ثَمّ التقليل من تكوّن حامض اللاكتيك، فلا تتم عملية التطرية بالشكل المطلوب»[١].

وفي الصوم قربة وصحة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فغاية الصوم هي وصول العبد لتقوى الله عز وجل، والصوم من أفضل القربات إلى الله سبحانه فأجر الصوم موكول لله عز وجل، قال رسول الله ﷺ: (قال الله: كل عملِ ابنِ آدمَ له إلا الصيامَ، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنّةٌ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرُؤٌ صائم، والذي نفس محمد بيده، لخُلوفُ فم الصائم أطيب عند الله مِن ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه)[٢]. فالصوم امتناع عن الشهوات إرضاء لله عز وجل، ومنها كسر الشهوة العارمة في النفس؛ فقد أوصى النبي ﷺ من لا يستطيع الزواج بالصوم فقال: (من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصَنُ للفَرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاءٌ)[٣]. فعند الامتناع عن الطعام والشراب تضعف قوة جسم الإنسان وتقوى روحه؛ مما يسهم بالامتناع عن المعاصي وزيادة القربات.

(١) الغذاء والتغذية في الإسلام، للدكتور معز الإسلام فارس، ص (٧).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١). ومعنى جُنَّةٌ: وقاية.
(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومعنى وجاء: قاطع للشهوة.

ولم يشرع الصيام لتعذيب النفس وإنما لتهذيبها وتربيتها، لذلك نهى عن صوم الدهر لعدم إهلاك النفس، قال النبي ﷺ: (لا صامَ مَن صامَ الدهرَ)[١]، وقد ردَّ النبي ﷺ على مَن يلتزمون الصوم أبدًا بقوله: (لكِنِّي أصومُ وأُفطِرُ)[٢].

وللصوم فوائد طبّية علاجية، ولا يقصد به الصوم الطبّي الذي يعني الامتناع عن الطعام دون الماء، بل الصوم الشرعي، والذي أجريت عليه عدد من الأبحاث؛ فمن فوائده: «تخفيض الانفعالات النفسية رغم الاستثارات المختلفة التي تعرّض لها الصائمون، وانخفاضٌ في سمّيات الجسم، وتقوية جهاز المناعة الذي يُسهم في الوقاية من كثير من الأمراض»[٣].

ضرورة الاعتدال في الأكل والشرب وعدم الإسراف:

يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فالإسراف لا يقتصر على الزيادة في الطعام فقط، بل من الإسراف تكثير أنواع الطعام على المائدة، وكون الطعام غالي الثمن، كذلك الإسراف في تناول نوع منه له آثاره الصحية، «فكما أنّ مطلق الإسراف في تناول الغذاء مذموم في الشريعة، فإنّ الإسراف في أنواع من الغذاء -حتى لو كانت مباحة بل وعالية الجودة- يأخذ الحكم ذاته؛ لما يترتّب على هذا الإسراف من إلحاق الضرر بصحّة الإنسان»[٤]، ومن الإسراف: ما يحدث اليوم من المبالغة بالاهتمام بالأطعمة وأنواعها وتفاصيلها وتخصص قنوات يتابعها ملايين الأفراد، والعبد لم يخلق لهذا الأمر، بل عليه أن يأخذ بُلغته فقط، ولا يضيع وقته في متابعة ما لا ينفعه في دنياه وآخرته.

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

(٣) الإعجاز العلمي في الصيام، البروفيسور حسن أبو عائشة، المؤتمر العالمي للقرآن الكريم ودوره في بناء الحضارة الإنسانية، الخرطوم السودان، ٢٠-٢٢ محرم ١٤٣٣هـ/ الموافق ١٥-١٧ ديسمبر٢٠١١م، ص (١٩٨-٢٠٠).

(٤) الغذاء والتغذية في ضوء الكتاب والسنة، للدكتور موسى البسيط، مجلة جامعة القدس المفتوحة، العدد السادس، تشرين أول ٢٠٠٥م، ص (٣٣٦).

وكذلك أكَّدت السنّة النبوية ضرورة الاعتدال وعدم التجاوز، قال رسول اللهِ ﷺ: (ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلبَه، فإن كان لا محالة: فثُلثٌ لطعامه وثُلثٌ لشرابه وثُلثٌ لنَفَسِه)[١]. قال ابن القيم: «ومراتب الغذاء ثلاثة: أحدها: مرتبة الحاجة، والثانية: مرتبة الكفاية، والثالثة: مرتبة الفَضْلَة»[٢].

أثر فضول الطعام على الإنسان:

قال النبي ﷺ: (المؤمن يأكل في مِعًى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء)[٣]، وبيَّن أنَّ: (طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة)[٤]. وعند مسلم: (طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة)[٥]. وعاش النبي ﷺ على هذا المنهج، فعَن عائِشَةَ رضي الله عنها قالت: (ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبِضَ)[٦].

يردّد بعض الناس شبهة أنَّ الناسَ في عهد النبي ﷺ لم يكونوا يجدون طعامًا؛ لذا جاءت هذه التوجيهات لأجل التغلّب على هذه المشكلة، وهذا الكلام مردود، فليست جميع أحوالهم فقرًا، بل كانت تأتيهم الغنائم الكثيرة ويتوفّر الطعام، لكن لم يكن من عادته ﷺ الشِبَع، بل كان يحذّر منه، فعَن عون بن أبي جُحيفة، عن أبيه قال: أكلت ثريدة بلحم سمين، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أتجشأ، فقال: (اكْفُفْ عليك جُشاءَك أبا جُحيفة، فإن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة) فما أكل أبو جُحيفة مِلءَ بطنه حتى فارق الدنيا، كان إذا تغدّى لا يتعشى، وإذا تعشى لا يتغدى[٧].

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، (١٧/٤)
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦١).
(٤) أخرجه البخاري (٥٣٩٢)
(٥) أخرجه مسلم (٢٠٥٩).
(٦) أخرجه البخاري (٥٤١٦).
(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٩٢٩).

وعلى هذا المنهج سار الصحابة رضي الله عنهم فقد «كان ابنُ عمر لا يكاد يشبع مِن طعام»[١]. يقول ابن قدامة: «فالأكل في مقام العدل يُصحُّ البدن وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه»[٢]. وقال ابن الجوزي: «فأما التوسع في المطاعم فإنه سبب النوم، والشِّبَعُ يُعمي القلب، ويُهزِل البدن ويُضعفه»[٣].

ورحم الله الإمام الشافعي الذي بيّن خطورة الشبع وأنّه مع غيره سبب للمرض والهلاك[٤]:

ثَـلاثٌ هُـنَّ مُهـلِـكَةُ الأَنـامِ
وَداعِيَةُ الصَـحيحِ إِلى السِقامِ
دَوامُ مُـــدامَـةٍ وَدَوامُ وَطءٍ
وَإِدخالُ الطَعامِ على الطَعامِ

ومن اعتاد على الشبع فعليه التريُّض حتى يتخلَّص من هذه العادة، يقول ابن قدامة: «وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أنّ مَن تعوّد استدامة الشبع فينبغي له أن يقلّل من مطعمه يسيرًا مع الزمان، إلى أن يقف على حدّ التوسّط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سببًا لبقاء القوّة، فلا يحسّ المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصحّ البدن، وتجتمع الهمّة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن»[٥].

فالدين الإسلامي سبق الهيئات الصحيّة والغذائية بوضعه ضوابط وقائية في التغذية، لو التزمها الإنسان لما أصابته كثير

(١) أخرجه وكيع في كتاب الزهد (٧٨).
(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص (١٦٣).
(٣) صيد الخاطر، ص (٤٦٠).
(٤) ديوان الإمام الشافعي، إعداد محمد إبراهيم سليم، ص (١٢٧).
(٥) مختصر منهاج القاصدين، ص (١٦٣).

من الأمراض؛ وقد أثبت الطب الحديث ضرر الإفراط في الطعام وتسبّبه بالكثير من المشاكل الصحية والأمراض (كالسكري، ومشاكل في الجهاز الهضمي، واضطرابات النوم، والتعب والإرهاق والخمول، وأمراض القلب)، عدا عن أضرار السمنة وتوابعها[١]. وما انتشرت هذه الأمراض إلا لعدم التزام الناس بالضوابط الشرعية للتغذية.

آثار الغذاء النفسية والسلوكية:

درس العلماء أثر الغذاء على النفس من خلال علم النفس الغذائي، والذي يركز بدوره على ضرورة التنويع في مصادر الغذاء والابتعاد عن الأغذية المصنّعة والمشروبات الغازية وغيرها من الآثار، «وقد ثبت أنّ الأطعمة تؤثّر إيجابيًا على إفراز بعض الكيماويات بالمخ، والتي تؤثّر بدورها مباشرة على تحديد حالتنا النفسية وطاقتنا الذهنية ومن ثَمّ أدائنا وتصرفاتنا، فالغذاء يؤثّر على حالتنا النفسية والمزاجية بشكل كبير وفعّال ومؤثّر للغاية، وذلك لأنّ نوعية المأكولات التي يتناولها الإنسان تسهم إلى حدّ كبير في تحديد مزاجه والتأثير على حالته النفسية»[٢].

وكذلك أجريت عدد من الدراسات تسعى لإثبات تأثير الغذاء في السلوك، ولا شكّ أنّ التغذية السليمة تسهم في بناء الجسم بشكل صحيح، ويكون لها أثر إيجابي ينعكس على السلوك الإنساني، إضافة إلى «وجود مجموعة من المنافع للأغذية الطيبة على أجهزة الجسم البشري، وخاصة الجهاز العصبي المركزي المنظّم الأول للسلوك، وهناك أضرار نفسية وجسدية وسلوكية للأغذية الخبيثة تؤكّد خطرها وضرورة تحريمها»[٣].

(١) الغذاء والتغذية، نخبة من الدكاترة، إشراف عبد الرحمن مصيقر، ص (٢٥١-٣٠٧).
(٢) الغذاء والصحة النفسية والبدنية، للدكتورة أمل الفقي، ص (٣٠).
(٣) دور الغذاء في السلوك الإنساني من منظور إسلامي، لخولة حسن، ص (١٢٥).

وكذلك دراسات أخرى تسعى لإثبات تأثير الغذاء في الجريمة، وما تزال هذه الدراسات قيد التجربة، وبشكل عام: فإنّ غالب الدراسات تحذّر من الإفراط في تناول السكّريات والدهون المشبعة، وتوصي بتناول الأطعمة الطبيعية[١]، وكذلك لا يمكن إثبات ارتباط الجريمة بالتغذية فحسب؛ فهناك عوامل أخرى تسهم في حدوث الجريمة؛ كالتربية، والبيئة المحيطة، والأقران.

الدين الإسلامي سبق الهيئات الصحيّة والغذائية بوضعه ضوابط وقائية في التغذية؛ لو التزمها الإنسان لما أصابته كثير من الأمراض، وقد أثبت الطب الحديث ضرر الإفراط في الطعام وتسبّبه بالكثير من المشاكل الصحية والأمراض

خلاصة:

لم يأت الشرع بنظام غذائي تفصيلي؛ فهو ليس نظاما طبّيًا أو دنيويًا، وإنّما شريعة إلهية وضعت قواعد عامة تنظم حياة المرء؛ وتقرّب العبد من ربه، والتزام الضوابط الشرعية في الغذاء يجعل حياة الفرد مستقيمة خالية من الاضطرابات النفسية والاجتماعية، وكذلك يسهم بحياة خالية من الأمراض والاضطرابات الصحّية، ويزيد من حيوية الفرد ونشاطه، ويزيد من إنتاجيته في جميع جوانب حياته.

(١) مقالة: الجريمة والتغذية - العلاقة بين الغذاء والسلوك المخالف «Crime and nourishment – the link between food and offending behaviour» منشور بتاريخ: ٢٨ سبتمبر ٢٠١٨م على موقع theconversation.com.

قراءة في كتاب: «فقه الاستدراك» لمحمد بن محمد الأسطل

أ. مهند تركي الدعفيس
ماجستير في الفقه وأصوله، داعية ومدرس.

الغفلة والتقصير لا ينفكُّ عنها العبد، لكن الله تعالى برحمته ومنّه شرع أزمنةً وأعمالاً فاضلة يستدرك الإنسان بها ما فاته، وتختلف مواضع التقصير في حياة الناس، وتتنوع تبعًا لذلك مجالات الاستدراك، وثقافة الاستدراك بناء لنمط حياة جديدةٍ، تحتاج لتخطيط جادٍّ يستلزم مِن المستدرِك امتلاك مفاتيح الاستدراك واجتياز عقباته، ومفتاح هذا كلِّه العلم قبل العمل؛ لضمان نجاح الاستدراك.

الغفلة والتقصير من طبيعة الإنسان، ولكنّ العاقل مَن عزم على استدراك ما فاته، وحينئذ يحتاج إلى فقه الاستدراك حتى يعوّض ما فاته دون حيرة وتشتّت. وهذا الاستدراك ضرورة في حقّ الأمم كما هو في حقّ الأفراد.

الكاتب في سطور:

هو محمد بن محمد الأسطل، حاصل على درجة الدكتوراه في الفقه المقارن من جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم من السودان، داعية وخطيب فلسطيني من قطاع غزة، له العديد من المؤلفات والبرامج المسجلة في صناعة الفرد والمجتمع والنهوض بالأمة.

وصف الكتاب:

يقع الكتاب في (١٤٤) صفحة وقد نشر بطبعته الأولى بتاريخ ٢٠١٩م، والنسخة المرفوعة على شبكة المعلومات (الإنترنت) دون معلومات دار الطباعة.

ضم الكتاب ثلاثة مباحث:

الأول بعنوان: على عتبات الاستدراك، وهو مدخل إلى فقه معنى الاستدراك، وأما الثاني فشمل الحديثَ عن مجالات الاستدراك، وعناية الشريعة به، بينما شمل الثالث معالم فقه الاستدراك.

فكرة الكتاب:

أضاءت للمؤلف فكرة الاستدراك من خلال عبارات جاءت عن بعض الصحابة؛ فقد أسلم كثيرٌ منهم في زمنٍ متأخر فصرَّحوا بعباراتٍ تبيّن خطّة استدراكهم لما مضى.

معنى الاستدراك:

يأتي الاستدراك لغةً بمعنيين:

الأول: إصلاح الأمر، وتلافي الخطأ والنقص، ومنه قول الفقهاء: يُستدرك النقص الحاصل في الصلاة بسجود السهو.

ومنه ما يؤلّفه العلماء لإتمام نقص أو تصحيح خطأ، كما فعل الحاكم المحدّث في كتابه المستدرك على الصحيحين، لا لينتقد البخاري ومسلمًا، بل ليدون الأحاديث التي جاءت على شرطهما بالتصحيح ولم يذكراها.

الثاني: تدارك ما فات وهو المقصود في هذا الكتاب.

فالاستدراك هو عملية تعويض لما فات بالاجتهاد فيما هو آت.

من استدراك الصحابة رضي الله عنهم:

حضرت فكرة الاستدراك بوضوح في أذهان الصحابة، ومن النماذج التي عرضها المؤلف:

أنموذج عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

فمن المحطَّات التي تبين فقه عمر لقضية الاستدراك قوله في قصة إسلامه رضي الله عنه: «أُشهد الله ورسوله وأشهدكم أنّي ما وقفت موقفًا آذيت فيه مسلمًا إلا وقفت مثله منافحًا عن الدين وأهله؛ لأستدرك ما سبقتموني إليه».

أنموذج عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه:

كان عكرمة في الجاهلية شديدًا على المسلمين، وكان من الذين أهدر النبي ﷺ دمهم ثم جاء مستأمنًا وأسلم، ثم قال: «والله لا أَتركُ مَقامًا قُمتُهُ لأَصُدَّ به عَن سبيل اللهِ إلا قُمتُ مثلَهُ في سبيل الله، ولا أتركُ نَفقةً أصدُّ بها عَن سبيل اللهِ إلا أنفقتُ مثلها في سبيل الله».

عناية الشريعة بالاستدراك:

الاستدراك من أمور الفطرة الإنسانية، ومن الإشارات الشرعية على الاستدراك ما يلي:

في تعاقب الليل والنهار فرصة للتعويض فيما بينهما:

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. قال ابن كثير: «فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل».

تعليم النبيِّ ﷺ كيفية الاستدراك:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: (أن فقراء المهاجرين أتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم؟ فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نُعتق. فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئًا تُدركون به مَن سبقكم، وتسبقون به مَن بعدكم، ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلا مَن صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: تسبحون وتكبرون وتَحمدون دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين مرةً)[١].

(١) أخرجه مسلم (٥٩٥).

فظاهرٌ فيه أنَّ النبيَّ ﷺ يُرشد الصحابة كيف يدركون مَن سبقهم، ويعوضون ما فاتهم.

حقيقة التوبة استدراك:

فالنصوص الداعية للتوبة هي داعية لاستدراك ما مضى، وقد مدح الله الذين يسارعون في التوبة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

> «مَن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل»
> ابن كثيرٍ رحمه الله

من جوانب الاستدراك:

أ / الجانب التعبُّدي:

يسّرت الشريعة للمسلم سبل استدراك ما فاته من العبادات ومن ذلك:

❊ أولاً: استدراك الوِرد القرآني الخاص بالليل:

لقول النبي ﷺ: (مَن نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتب له كأنما قرأه مِن الليل)[1] قال ابن عبد البر: «وهذا الوقت فيه من السعة ما ينوب عن صلاة الليل، فيتفضل الله برحمته على مَن استدرك مِن ذلك ما فاته».

(١) أخرجه مسلم (٧٤٧).

❊ ثانيًا: استدراك الصيام:

استدراك الصيام يكون بثلاثة طرق:

» **الأولى:** أن يكثر المسلم التنفل من جنس ما خاف الفوات فيه لقول رَسُولِ اللهِ ﷺ: (إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة مِن أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا جل وعز لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا قال: انظروا هل لعبدي مِن تطوع؟ فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته مِن تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم)[١].

» **الثانية:** حسن الخلق: لقول النبي ﷺ: (إن المؤمن لَيُدرِك بحسن خلقه درجةَ الصائم القائم)[٢].

» **الثالثة:** تفطير الصائم: لقول النبي ﷺ: (مَن فطَّر صائمًا كان له مثلُ أجره، غير أنه لا يَنقص مِن أجر الصائم شيئًا)[٣].

❊ ثالثًا: استدراك الزكاة والصدقة:

من سبل استدراك الزكاة والصدقة ما دلّ عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الرواية الأخرى: قال: (أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة...)؛ فمن أعظم أبواب استدراك الصدقات ذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨).
(٣) أخرجه الترمذي (٨٠٧).

❊ رابعًا: استدراك الحج والعمرة:

من لم يتيسر له الحج أو العمرة فيمكنه استدراك ذلك بجملة من الأعمال منها:

١. قصد المسجد بالصلاة لقول النبي ﷺ: (من مَشى إلى صلاةٍ مكتوبةٍ فِي الجماعةِ فهي كَحَجَّةٍ، ومَن مَشى إلى صلاةِ تَطَوّعٍ فهي كعُمَرَةٍ تامة)[١].

٢. الجلوس في المسجد حتى شروق الشمس للذكر؛ لقول النبي ﷺ: (مَن صلى الغَداةَ في جماعةٍ ثُمَّ قعدَ يذكرُ اللهَ حتى تَطلُعَ الشمسُ، ثُمَّ صلى ركعتينِ كانت له كأجرِ حَجَّةٍ وعُمرةٍ)[٢].

٣. الذهاب إلى المسجد بنية التعلُّم أو التعليم؛ لقول النبي ﷺ: (مَن غَدا إلى المسجدِ لا يُريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يُعَلِّمَهُ.. كان له كأجرِ حاجٍّ تامٍ حجته)[٣].

٤. العمرة في رمضان؛ لقول النبي ﷺ: (عُمرَةٌ في رمضانَ تقضي حَجَّةً مَعِي)[٤].

٥. الصلاة في مسجد قباء؛ لقول النبي ﷺ: (الصلاةُ في مسجدِ قُباءٍ كعُمرَةٍ)[٥].

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٥٤٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٥٨٦).
(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤٢٣).
(٤) أخرجه البخاري (١٨٦٣).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٢٤).

ب / الجانب الفقهي:

يأتي الاستدراك في الفروع الفقهية شاملاً لكلا معنيي الاستدراك كما يلي:

❊ أولاً: استدراك النقص في العبادات:

جاءت الشريعة بوسائل لاستدراك ذلك ومنها:

١. **سجود السهو:** لاستدراك الخلل في الصلاة.

٢. **الإعادة:** لاستدراك مبطل وقع في الصلاة فإنه يعيدها صحيحة في الوقت أداء.

٣. **القضاء:** لاستدراك عبادة فات وقتها أو تضمّنت مبطلاً لها.

٤. **الفدية:** وهي مخرج شرعيّ في حالاتٍ، كالعجز عن أداء العبادة، أو خروج وقت العبادة ولم تشرع الشريعة قضاءً لها، أو عند اقتراف محرّم في العبادة.

❊ ثانيًا: استدراك فوات الأجر:

ومن وسائل ذلك:

١. إعادة الصلاة المكتوبة المؤدّاة انفرادًا في جماعة؛ ليستدرك أجر صلاة الجماعة بإعادة الصلاة من جديد.

٢. قضاء السنن الفائتة؛ لاستدراك أجرها، كما ثبت في السنة.

٣. ذكر التسمية فيما لو نسيها عند أول الطعام؛ لقول النبي ﷺ: (إذا أكلَ أحدكم فليذكر اسمَ اللهِ تعالى، فإن نسيَ أن يذكر اسمَ اللهِ تعالى في أوّلِهِ فليقل: بسمِ اللهِ أوّلَهُ وآخره)[1].

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧).

٤. الوصية: لاستدراك ما فاته في حياته، فإذا شعر بدنو الأجل أوصى بما لا يزيد عن ثلث ماله أن يصرف في وجوه الخير المتعدّدة.

> **يسّرت الشريعة للمسلم سبل استدراك ما فات العبد من العبادات بأداء عبادات عوضًا عنها، واستدراك النقص في العبادات بجبرها بتشريعات أخرى؛ لتعويض المسلم عما فاته من الأجر**

ج / الاستدراك في الجانب العلمي:

التقصير في الجانب العلمي له أسباب، منها: عدم اكتمال المدارك العلمية، أو الانشغال قبل اكتمال التأهّل بالدعوة أو الوظيفة، أو غير ذلك.

ويستطيع الإنسان استدراك ما فات، بل والوصول إلى درجة الرسوخ في العلم، فليس هو بالأمر المحال، ولا يحتاج إلّا بضع سنوات لمن حسنت همّته، وقد نبغ عدد من الأئمة كذلك قديمًا وحديثًا.

فمنهم الصحابي معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقد استحقّ لقب أعلم الأمّة بالحلال والحرام، وما عاش في الإسلام إلّا عشر سنوات، ومات هو ابن ثمانية وعشرين عامًا! وهذا سيبويه إمام النحاة في الدنيا، وهو من أسرة فارسية، ومات وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة على المشهور، وتصدّى الشافعي للإفتاء بإجازة من الإمام مالك وهو ابن خمسة عشر عامًا.

ولأنَّ الكتاب يتولّى التنظير لفكرة الاستدراك أكثر من التفصيل فيها؛ فقد أجمل المؤلف الاستدراك في الجانب العلمي في سبع نقاط هي:

١. الإلحاح على الله بالدعاء أن يفتح لك باب العلم.
٢. التخفُّف من الشواغل ومتابعة وسائل التواصل، والتخفّف من التصدّر العلمي.
٣. الانطلاق من الوحي؛ حفظًا وفهمًا وتحصيلاً للمفاهيم والأفكار والقواعد.
٤. الانكباب على علمٍ واحدٍ والإحاطة به والانصراف إليه بكليته، فإذا انتهى منه أو من قطعة وافية منه تحول إلى غيره.
٥. ضبط العلم والتركيز فيه: فيحفظ متنًا مختصرًا، ثم يعمد إلى شرحٍ له فيكرره حتى يستظهره تمامًا.
٦. الاعتناء بعلوم الآلة: وأهمها اللغة وأصول الفقه وأصول التفسير ومصطلح الحديث.
٧. العناية بتكوين العقلية العلمية بالنظر في كتب المداخل لكل علم، والكتب الفكرية المستمدّة من مادّة الوحي.

يستطيع الإنسان استدراك ما فاته مِن العلم، بل والوصول إلى درجة الرسوخ فيه وإن تقدم به العمر، فليس هو بالأمر المحال، ولا يحتاج إلّا بضع سنوات لمن حسنت همّته

معالم فقه الاستدراك:

وهو أهم مباحث الكتاب؛ لأنه يتناول الفقه العملي للاستدراك، وقد تضمن عدة مباحث نذكرها تباعًا:

اختيار مجال الاستدراك:

من أهم معايير اختيار مجال الاستدراك للفرد أن يلبي حاجة الأمّة، وكلّما كان أقرب إلى واجب الوقت كان أولى وأنفع.

ويرى المؤلف أنّ أصول مجالات حاجة الأمة هي: العلم النافع بنوعيه الديني والدنيوي، والجهاد بجميع مراتبه، والأمن، والإعلام، والاقتصاد، والسياسة، وإصلاح بنية المجتمع.

ومن الأمثلة على ذلك: استدراك عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإنهاء حالة الاختفاء والجهر بالدعوة في مكّة، واستدراك خالد بن

الوليد ﵁ في غزوة مؤتة عندما فرَغ منصبُ القيادة فتولّى زمام الأمور وأنقذ جيش المسلمين بطريقة بديعة.

حسن التخطيط الإداري:

ويعني به تنظيم الشخصية وكتابة الخطة الذاتية، وتحديد الشكل النهائي للشخصية الذي ستتأسس الخطة بناء عليه، ثم بيان كيفية كتابة الخطة.

❊ أهمية تنظيم الشخصية وكتابة الخطة الذاتية:

استفتح المؤلف الكلام بقول الشيخ محمد الغزالي:

«ما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين والحين، وأن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها؛ ليتعرف عيوبها وآفاتها، وأن يرسم السياسات القصيرة المدى والطويلة المدى ليتخلص من الهَنات التي تزري به».

ومن منافع انتظام الإنسان وفق خطة شخصية الأوجه الثلاثة الآتية: كثرة الإنجاز، والسلامة من الاضطراب، وحلّ المشكلات الخاصة.

❊ تحديد الشكل النهائي للشخصية:

والمقصود بها النموذج النهائي الذي يسعى إليه الفرد بعد دراسة ميوله وإمكاناته دون التأثّر برغبات الآخرين.

❊ محاور خطة الاستدراك:

تختلف محاور خطة الاستدراك باختلاف الأشخاص ونوع الاستدراك المراد، لكن بوجه عام لا بدّ أن ترتكز على محاور منها:

١. الجانب الإيماني: ويشمل العبادات كالتهجد وحفظ القرآن.

٢. الجانب التربوي والخُلُقي: ويُرَكِّز على الجانب السلوكي؛ كالعفة والصدق.

٣. الجانب العلمي: ويضم الاهتمامات العلمية، بما يشمل التخصص وغيره.

٤. الجانب الدعوي: بالتنظير للجانب المراد استدراكه من خلال الوسائل المتاحة.

٥. الجانب الاجتماعي: وفيه العناية بالأهل، والعلاقة مع الأرحام والجيران والأصدقاء.

٦. الجانب الشخصي: ويعني الجانب الصحي والترفيهي وتحصيل المهارات التي يحتاجها ويرغبها.

❊ **تقييم الخطة والإنجاز:**

والغاية منها تدارك النقص في المحاور السابقة ومعرفة مقدار الإنجاز الذي تحقق.

❊ **ومن الأمور المعينة على المضي في تطبيق الخطة:**

١. الإرادة هي أصل التغيير، وهي أساس خطة الاستدراك وباعثها الأول.

٢. الخطة الشخصية ليس لها قُدسِيَّة؛ بحيث لا تحتمل الطوارئ.

٣. يعقب الإنجاز نوع من الخمول، وهذا أمر طبيعي، وفترة الراحة أمر طبيعي في الخطة.

٤. انتظام النوم والصلاة صلاحٌ في الدنيا والدين، وإعانة على نجاح خطة الاستدراك.

مِن أهم معايير اختيار مجال الاستدراك: تلبية حاجة الأمّة، وكلّما كان أقرب إلى واجب الوقت كان أولى وأنفع

اغتنام الأزمنة والأمكنة الفاضلة:

وهذا الاغتنام مهم في الاستدراك التعبدي، فمن الأماكن الفاضلة التي تضاعف فيها الأجور: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، وثغور الحراسة والرباط. ومن الأزمنة الفاضلة: شهر رمضان، وليلة القدر، وعشر ذي الحجّة، وعرفة وعاشوراء.

أ / استثمار أحاديث الفضائل:

والغاية منه تحصيل الفضل الكثير في وقت قليل وجهد يسير، وهذا يشمل استثمار أحاديث الفضل وأحاديث التفضيل. استثمار الأزمنة والأمكنة الفاضلة في العمل من الفقه لدى المستدرِك، وهو من الأعمالِ التي منحتها الشريعة فضلاً خاصًّا يمكن به تحصيل الفضل الكبير في وقتٍ قليل وجهدٍ يسير.

❊ **أما استثمار أحاديث الفضل فمن شواهده:**

١. الحسنة بعشر أمثالها: وهذا تضعيف يعمّ عامة الأعمال، لقول النبي ﷺ: (مَن قرأ حَرفًا مِن كتابِ الله فَلَهُ بهِ حسنةٌ، والحسنةُ بعَشرِ أمثالها.....)[١].

٢. الاشتغال برفع الدرجات في الجنة خاصة:

- ومنها الاشتغال بحفظ القرآن أو بعضه لقول النبي ﷺ: (يُقال لصاحب القرآن: اقرَأ وارتَقِ ورَتِّل

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠).

كما كنت تُرَتِّل في الدنيا، فإنَّ منزلك عند آخر آيةٍ تَقرؤُها)[١].

- ومنها: الاشتغال بكثرة السجود؛ لقول النبي ﷺ: (ما من عبدٍ يسجد لله سجدةً إلا كَتب اللهُ له بها حَسَنَةً، ومحا عنهُ بها سَيِّئَةً، ورفعَ له بها دَرَجَةً، فاستَكثِروا مِن السجود)[٢].

٣. كثرة التعبد في زمان الفتن لقول النبي ﷺ: (فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهم مثلُ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله،... قال: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم)[٣].

٤. صلة أهل ودّ الوالدين: وهو استدراك خاص ببر الوالدين لقول النبي ﷺ: (إنَّ أبَرَّ البرِّ صِلَةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيهِ)[٤].

٥. تعدد النيات في العمل الواحد: كمن صلى تحية المسجد وضم إليها سنّة الظهر وسنّة الوضوء وصلاة التوبة وصلاة الحاجة؛ فيرجى أن يحوز ثوابًا مستقلاً على كلّ نيّة بإذن الله وفضله.

٦. اجتهاد المرابط في الثغر: لقوله ﷺ: (رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صِيام شهرٍ وقيامِه، وإن ماتَ جَرى عليهِ عَمله الذي كان يَعمل، وأُجريَ عليه رِزقه، وأَمِن الفَتّان)[٥].

٧. الدعوة إلى الخير: فإنّها أصل ما يُمكن تلقيبه بـ «سند الأجر المتصل» إلى يوم القيامة.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤).
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٢٤).
(٣) أخرجه أبو داوود (٤٣٤١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٢).
(٥) أخرجه مسلم (١٩١٣).

ب / استثمار أحاديث التفضيل:

حرص الصحابة على السؤال عن أفضل العمل، ومن ذلك:

١. حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الصلاةِ أفضَلُ؟ قال: طُولُ القُنوت)[١].

٢. حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاءَ رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ الصدَقة أعظَم أجرًا؟ قال: أَن تَصَدَّقَ وأنت صحِيحٌ شَحِيحٌ، تخشى الفَقر وتَأملُ الغِنى)[٢].

ج / استثمار عبادات يسيرة تحمل أجور عبادات كبيرة:

فالناس متفاوتون في قدرتهم على أداء العبادات ويكون تعويض فضل العبادة الشاقة بالإكثار من العبادة التي يسّرها الله على الإنسان، ومن الأمثلة على ذلك:

❊ استدراك فضل صلاة الجماعة:

فمن فوّت صلاة جماعة فليحرص على صلاة في السرّ ليستدركها، لقول النبي ﷺ: (صلاةُ الرجل تطوُّعًا حيثُ لا يراهُ الناسُ تَعدلُ صلاتَه على أعيُن الناس خَمسًا وعشرين درجة)[٣].

❊ استدراك فضل قيام الليل:

من خلال أعمال وردت في النصوص وهي:

١- صلاة العشاء والفجر في جماعة، ٢- قراءة خواتيم البقرة، ٣- قراءة خواتيم آل عمران، ٤- نية القيام، ٥- القيام بمئة آية، ٦- إتمام التراويح مع الإمام، ٧- الغسل يوم الجمعة والتبكير إليها، ٨- الرباط على الثغور، ٩- رعاية الأرملة والمسكين.

(١) أخرجه مسلم (٧٥٦)، والقنوت: هو القيام.
(٢) أخرجه البخاري (١٤١٩).
(٣) اتحاف الخيرة المهرة، للبوصيري (١٦٤٨).

❊ استدراك فضل الجهاد:

من خلال أعمال وردت في النصوص وهي:

١- كفالة المجاهدين وأهلهم، ٢- رعاية الأرملة والمسكين، ٣- الإكثار مِن ذكر الله، ٤- الصدع بالحقّ عند الحاكم، ٥- تحسين الوضوء والصلاة.

وإذا عجز المرء عن استدراك بعض الأعمال اكتسب بنيّته الصادقة أجر مَن عملها، يدلّ لذلك قوله ﷺ: (من سأَلَ اللهَ الشهادةَ بصدق بَلَّغَهُ اللهُ منازل الشهداءِ وإِن مات على فراشِهِ)[١]، وقوله: (مثلُ هذه الأُمةِ كمثلِ أربعةِ نفرٍ: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً وعلمًا فهو يعملُ بعلمِه في مالِه يُنفقُه في حقِّهِ، ورجلٌ آتاه اللهُ علمًا ولم يُؤْتِه مالاً فهو يقولُ: لو كان لي مثلُ هذا عملتُ فيه مثلَ الذي يعملُ، فهما في الأجرِ سواءٌ ...)[٢].

د / استثمار المواقف الفاضلة:

والمقصود أن يلتقط الإنسان الرسالة من مواقف فارقة في حياته تعرّض فيها لحرج شديد، فلم ييأس، بل عدها رياحًا مواتية فاغتنمها ثم بدأ يستدرك ما فات بالتعويض المركّز فيما هو آت.

❊ ومن أمثلة هذه المواقف:

» **الأول:** ما ذكره ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب» أن سيبويه جاء إلى حماد بن سلمة لكتابة الحديث، فاستملى منه قوله: (ليسَ من أصحابي أحدٌ إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء)، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، فصاح به حماد: لحَنْتَ يا سيبويه؛ إنّما هذا استثناء، فقال

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٨).

سيبويه: والله لأطلبن علمًا لا يلحنني معه أحد، ثم مضى ولزم الخليل وغيره؛ حتى أصبح إمام النحاة إلى يوم القيامة.

» **الثاني:** كان الفضيل بن عياض يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام، واشتغل بالعبادة حتى لقب بعابد الحرمين.

ينبغي على المسلم استثمار أحاديث الفضائل والتفضيل في الأعمال والأزمنة والأمكنة الفاضلة لتحصيل الفضل الكثير في وقت قليل، والناس متفاوتون في قدرتهم على أداء العبادات، فيكون الاستدراك لهم الإكثار من العبادة التي يسّرها الله على الإنسان

تملك مفاتيح الاستدراك:

من فقه الاستدراك تملّك مفاتيحه، ودونك تعداد أربعة من تلك المفاتيح:

» **أولاً:** حسم الشكل النهائي للشخصية التي نبتغي الوصول إليها من عملية الاستدراك، وطريقة تحصيله: أن تعتزل الناس أيامًا لإنجازه؛ فليس إنفاق أسبوع في ذلك بوقت ضائع إذا كان به حفظ بقية العمر، ثم لتتعاهد مسيرتك بجلسات تقويمية في ختام كلّ شهر وسنة.

» **ثانيًا:** تقبّل النصيحة، فهي تختصر كثيرًا من الجهد لمن رام الاستدراك.

» **ثالثًا:** مرونة القرار، وتكون بسهولة تغيير بعض جزئيات خطة الاستدارك في حال ظهر الصواب في جهةٍ ما لم تكن مدرجة في الخطة.

» **رابعًا:** التنافس البنّاء، وذلك حين يرى مَن سبقه فيجعل مِن ذلك فرصة ثمينة للتنافس والوصول إلى ما وصلوا إليه مِن أبواب أخرى مِن الخير.

ومن شواهد التنافس البنّاء: أنّ مدرسة البصرة لما تقدمت وألفت علم النحو أرادت مدرسة الكوفة أن تستدرك وتؤلف علم الصرف، واستطاعت أن تحقق ما أمّلته، ففكرة الاستدراك حملت أهلها على أن يسدوا فجوات في العلم، ويكرموا المكتبة الإسلامية بعزيز المؤلفات ونفيس المصنّفات.

التفلّت من عوائق الاستدراك:

وهي ضرورية لنجاح عملية الاستدراك ومن هذه العوائق:

١. **رفقاء السوء**، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٢. **الزوجة والأولاد الذين يثبّطون عن الإنجاز والنجاح**، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

٣. **كثرة الشواغل الدعوية**، فمن كان كثير الانشغال بالأعمال الدعوية بكل تفصيلاتها فعليه أن يختار منها ما يتوافق مع خطة استدراكه، بحيث يدع ما تَقِلُّ فيه إفادته، ويُستهلك فيه وقته.

٤. **التسويف**، يقول الشيخ محمد الغزالي: «كثيرًا ما يحب الإنسان أن يبدأ صفحة جديدة في حياته، ولكنه يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة؛ كتحسّنٍ في حالته، أو تحوّلٍ في مكانته، وقد يقرنها بموسم معينٍ، أو مناسبة خاصةً؛ كتاريخ ميلاد، أو غرّة أسبوع أو شهر أو عام مثلاً! وهو في هذا التسويف يشعر بأنّ رافدًا من روافد القوة المرموقة قد يجيء مع هذا الموعد، فينشّطه بعد خمول، ويُمنّيه بعد إياس، وهذا وهم ... فلا مكان لتريّث، وإنّ الزمن لا يهبُ المُقعَدَ طاقةً يقدر بها على الخطو أو الجري، فذاك مستحيل».

٥. **إحباط النفس:** إن فكرة الاستدراك تقوم على أن يتحول الإنسان من مسار خطأ إلى مسار صواب، أو من مسار مفضول إلى مسار فاضل، ثم يراكم الجهد بأعدل السبل وأقوم المنهجيات حتى يعوض ما فات. وهذا الأمر يعني أنّ صدر قاصد الاستدراك سيمتلئ بالأفكار والخواطر، وربما دخل في صراع داخلي مع النفس، وهذا العناء في معركة الشعور متوقع؛ لأنّه نتيجة طبيعية فترة التحولات في حياة الإنسان، لا سيما وأنّ الإنسان نفسه مخلوق ضعيف، حتى إنّ كلمة من المدح ترفعه، وكلمة من القدح تقعده!

٦. **الشعور بالإحباط نتيجة الأزمات:** فمِنَ الناس من يقع عند اشتداد الأزمات في الكسل واليأس، ولتدارك هذا لا بد أن يُذكر بأن جمهرة الناجحين تفوّقوا في نفس الظروف التي كان يشتكيها المحبطون، ولذا؛ لا تأسَ على ما فات إلا لتستدرك فيما هو آت.

وفكرة تحويل مشاعر الإحباط إلى مشاعر من الأمل سنّة من جملة السنن الواردة عن النبي ﷺ، خذ لذلك مثلاً نظرة الصحابة إلى جبل أحد.. هذا المكان الذي خالفوا فيه أمر النبي

ﷺ، وقُتل بسبب ذلك سبعون رجلاً، وجُرح النبي ﷺ جراحًا بليغة، وتحوّل النصر إلى هزيمة، فانظر إلى كمية مشاعر الإحباط والتشاؤم التي تنبعث بمجرد تذكر هذا الجبل، فضلاً عن رؤيته والمسير بجواره، لكنّ النبي ﷺ حول هذه المشاعر، وجعله مكانًا ترتاح فيه النفوس، وتطرب له القلوب، وتشتهي أن تزوره؛ فإنّه لما كان عائدًا بالمسلمين من خيبر، وأشرف على المدينة نَظَرَ إلى أُحُدٍ فقال: (هذا جبلٌ يُحبنا ونُحبهُ)[1].

> **«كثيرًا ما يُحبُّ الإنسان أن يبدأ صفحة جديدة في حياته، ولكنه يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة، أو مناسبةٍ خاصة، وهو في هذا التسويف يشعر بأنّ رافدًا من روافد القوة المرموقة قد يجيء مع هذا الموعد، وهذا وهم ... فلا مكان لتريُّث، وإنّ الزمن لا يهبُ المُقعَدَ طاقةً يقدر بها على الخطو أو الجري»**
>
> **الشيخ محمد الغزالي رحمه الله - باختصار**

وختامًا:

فهذا أوان الاستدراك قد حان، سواء كان استدراك الأفراد أو استدراك الأمة لتعود إلى عزّها ومجدها، والباب الذي ما زال موصدًا قد يفتح في أي لحظة، فأدمن طرق الباب حتى يأذن الله بفضله، فلا تفقد الأمل في إصلاح نفسك، ولا تربية ولدك، ولا تقويم أهلك، ولا بلوغ الإمامة في علمك ومطمحك ولو كثرت العراقيل أو تقدمت بك السن، وتذكر دومًا أنك تعامل ربًا كريمًا، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٣).

وآمَنَهُم مِن خَوف

د. خير الله طالب

«كنت أضرب غلامًا لي، فسمعتُ مِن خلفي صوتًا: (اعلَم أبا مسعود، لَلهُ أقدر عليك منك عليه)، فالتفتُّ فإذا رسولُ الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله، فقال: (أما لو لم تفعل لَلَفحتك النار، أو لَمَسّتك النار) رواه مسلم.

تعظيم العبد لخالقه عز وجل وخوفه منه أوّلُ خطوةٍ لرحمته بالناس وخاصّة إذا كانوا ضُعفاء من نساءٍ وأطفالٍ وعبيدٍ وعمّالٍ ومرؤوسين، وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم، واعترافه بحقوقهم ومنجزاتهم ومساحتهم الخاصّة، وحرصه على حريتهم وأمنهم النفسي.

تحرَّرت كثيرٌ من شعوب المنطقة العربية الإسلامية من عُقدة خوفها من سطوة حكّامها، فانتزعت مساحةً لحريتها، وفي أتون معركة التحرّر وما يرافقها من بعض الفوضى أو الانشغال: تسلَّطت فئاتٌ على الضعفاء ومَن لا يملكون حولاً ولا قوةً ولا مالاً. كما ابتلي مثقّفوها وقادتها بمخاوف على نحو آخر، كالخوف من نقد الجماهير الثائرة وحساسياتها، وأشدُّ منه: الخوف من الأقران وصعوبة الجهر بالنقد الذاتي الواجب والتصريح بالقناعات بشكل شفّاف؛ بسبب متلازمة خاطئة تعدُّ النقدَ إسقاطًا!

وآمَنَهُم مِن خَوف

د. خير الله طالب

أدّى ذلك -مع أسباب أخرى- إلى ضعف للعقل الجمعي القيادي لمؤسسات الثّورات وأجسامها، وخمول للفكر الرائد، ودوران في المكان؛ الأمر الذي ترك الجماهيرَ حيرى تحاول تدبير نفسها بنفسها، ساعية إلى الاستغناء عن أهل الفكر والرأي كما استغنت عن أهل السلطة والحكم! فأدّى ذلك إلى تيهٍ عامّ للرأي، وغثائية محزنة لجهود ضخمة اضطربت بوصلتها، فلربّما صبّت جهودها في مصالح عدوّها الدائب على توظيف ما أمكنه من تكتيكات الشعوب الثائرة وتحويلها إلى صالحه، أو استنزافها في صراعات بينيّة داخليّة لا عماد لها إلا طيش العقول أو شرعنة الظلم.

الخوف كلّه مبدؤه الجهل، جهل بالكبرياء والعظمة الإلهية، والسيادة السماوية، والسلطة الإيمانية، والرسالة الربانية، والسنن المجتمعية، والضعف الآدمي بعجزه ومحدوديته البشرية.

مَن غَفل عن شيء من ذلك نقصت إمامته للناس بقدر غفلته، ومَن عجز عن اقتحام عقبات الخوف من شركاء دربه وجماهير شعبه فلن تغنيه شجاعته الظاهرة في مقابل عدوه، ما لم يَظهر معدن ثبات قلبه ورباطة جأشه عندما تنهال عليه عجائب التخويف الأمني والقانوني والسياسي والاقتصادي والمعيشي والعسكري، وتتبدّى أمامه المصالح الموهومة. أمّا أصحاب المصالح

وآمَنَهُم مِن خَوف

د. خير الله طالب

الشخصية والفئوية الضيّقة فما استحقوا أصلاً الوقوف في صفوف الامتحان الصعب، لقد انكسروا عندما مدّوا أيديهم، فانهاروا بخيانة شعوبهم بما امتلأت به قلوبهم من الخوف على معايشهم.

أمّا الجماهير ونُخَبها المنتصرة على مخاوفها فقد مَثُلت أمام امتحان جديد، بأن تصنع الأمن في دوائر مسؤولياتها المتنوعة، بدءًا من دوائرها الشخصية، إلى ملتقيات الأسرة، والصف الدراسي، ومكاتب العمل، وبيوت الله، والمجالس الإدارية، والمنتديات الاجتماعية، والأندية الرياضية.. وذلك بأن تربّي نفوسها على سماع النقد، بل تستنصح مَن دونها من زوجات وأبناء وطلاب ومراجعين ومصلين وأعضاء وحاضرين وجلساء ولاعبين، حتى تبلغ نفوسها مبلغَ (رحم الله امرءًا أهدى إليّ عيوبي)، وحينها ستكون قد وضعت قدمها على سلّم الكرامة عند الله ودرج المحبة عند خلقه، حينما تشتغل بعيوبها عن عيوب مرؤوسيها وتابعيها؛ فتصبح قدوة تصنع بيئة آمنة للحوار والتفاهم لأجل التناغم والتفاعل والتعاون والتكامل.

تكثيف الوعي برسالة العلم وغايته ضرورة نهوض؛ فـ «إنما العلم الخشية»، فلا بركة في علم ولا تعليم يستبدل خشية الناس وخوف الرزق بخشية مالك خزائن السماوات والأرض، تلك الخشية التي عظّمت المعنويات والمبادئ في قلوب حَمَلة العلم المجاهدين بالقرآن،

وآمَنَهُم مِن خَوف

د. خير الله طالب

فهان في نفوسهم كلّ عظماء الأرض، فاستعلَوا بالوحي، واستقوَوا بمنزِّلِه جلّ قدره سبحانه، فدبّر الله لهم أحسن تدبير، وأغناهم عن كلّ كبير، فصاروا مرجعية حقيقية للناس، وتقدّموا صفوفهم، فصاروا للمتقين إمامًا، فعزّ بهم أهل الإسلام، وانتشر بريادتهم السلام.

لا أمن بلا إيمان، ولا سلام بلا إسلام، ولا انتصار بلا إمام لا يعرف الخوف حتى يصنع الله به الأمن للجميع.

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

رواء

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com